سيد قطب



دار الشروق

الطبعة الشرعية الثامنة

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الطبعة الشرعية التاسعة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الشرعية العاشرة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الطبعة الشرعية الحادية عشر

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX: SHOROK 25779G

سيّد قطب



دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في الطريق

تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية .. لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها .. فهذا عَرَضٌ للمرض وليس هو المرض .. ولكن بسبب إفلاسها فى عالم «القيم» التى يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية فى ظلالها نموًا سليمًا وتترقى ترقيًا صحيحًا . وهذا واضح كل الوضوح فى العالم الغربى ، الذى لم يعد لديه ما يعطيه للبشرية من «القيم» ، بل الذى لم يعد لديه ما يُقنع ضميره باستحقاقه للوجود ، بعدما انتهت «الديمقراطية» فيه إلى ما يشبه الإفلاس ، حيث بدأت تستعير ـ ببطء ـ وتقتبس من أنظمة المعسكر الشرقى وبخاصة فى الأنظمة الاقتصادية ! تحت اسم الاشتراكية !

كذلك الحال فى المعسكر الشرقى نفسه .. فالنظريات الجماعية وفى مقدمتها الماركسية التى اجتذبت فى أول عهدها عددًا كبيرًا فى الشرق ـ وفى الغرب نفسه ـ باعتبارها مذهبًا يحمل طابع العقيدة ، قد تراجعت هى الأخرى تراجعًا واضحًا من ناحية «الفكرة» حتى لتكاد تنحصر الآن فى «الدولة» وأنظمتها ، التى تبعد بعدًا كبيرًا عن أصول المذهب .. وهى على العموم تناهض طبيعة الفطرة البشرية ومقتضياتها ، ولا تنمو إلا فى بيئة محطمة ! أو بيئة قد ألفت النظام الدكتاتورى فترات طويلة ! وحتى فى مثل هذه البيئات قد بدأ يظهر فشلها المادى الاقتصادى ـ وهو

الجانب الذى تقوم عليه وتتبجح به ـ فروسيا ـ التى تمثل قمة الأنظمة الجماعية ـ تتناقص غلاتها بعد أن كانت فائضة حتى فى عهود القياصرة ، وتستورد القمح والمواد الغذائية ، وتبيع ما لديها من الذهب لتحصل على الطعام بسبب فشل المزارع الجماعية وفشل النظام الذى يصادم الفطرة البشرية .

ولابد من قيادة للبشرية جديدة !

إن قيادة الرجل الغربى للبشرية قد أوشكت على الزوال .. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست ماديًا أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية .. ولكن لأن النظام الغربى قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيدًا من «القيم» يسمح له بالقيادة .

لابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التى وصلت إليها البشرية ، عن طريق العبقرية الأوروبية فى الإبداع المادى ، وتزود البشرية بقيم جديدة جدَّة كاملة ـ بالقياس إلى ما عرفته البشرية ـ وبمنهج أصيل وإيجابى وواقعى فى الوقت ذاته .

والإسلام ـ وحده ـ هو الذى يملك تلك القيم وهذا المنهج .

لقد أدَّت النهضة العلمية دورها .. هذا الدور الذى بدأت مطالعه مع عصر النهضة فى القرن السادس عشر الميلادى ، ووصلت إلى ذروتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. ولم تعد تملك رصيدًا جديدًا .

كذلك أدَّت «الوطنية» و «القومية» التى برزت فى تلك الفترة ،

والتجمعات الإقليمية عامة دورها خلال هذه القرون .. ولم تعد تملك هي الأخرى رصيدًا جديدًا .

ثم فشلت الأنظمة الفردية والأنظمة الجماعية في نهاية المطاف .

ولقد جاء دور «الإسلام» . ودور «الأمة» في أشد الساعات حرجًا وحيرة واضطرابًا .. جاء دور الإسلام الذي لا يتنكَّر للإبداع المادي في الأرض ، لأنه يعدُّه من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن عهد الله إليه بالخلافة في الأرض . ويعتبره ـ تحت شروط خاصة ـ عبادة لله ، وتحقيقًا لغاية الوجود الإنساني .

«وإذْ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة»

[البقرة : ٣٠]

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

[الذاريات : ٥٦]

وجاء دور «الأمة المسلمة» لتحقق ما أراده الله بإخراجها للناس :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» ...

[آل عمران : ١١٠]

«وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا» ...

[البقرة : ١٤٣]

* * *

ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدى دوره إلا أن يتمثل فى مجتمع ، أى أن يتمثل فى أمة .. فالبشرية لا تستمع ـ وبخاصة فى هذا الزمان ـ إلى عقيدة مجردة ، لا ترى مصداقها الواقعى فى حياة مشهودة .. و «وجود» الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة .. فالأمة المسلمة ليست «أرضًا» كان يعيش فيها الإسلام . وليست «قومًا» كان أجدادهم فى عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامى .. إنما «الأمة المسلمة» جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامى ... وهذه الأمة ـ بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر-الأرض جميعًا .

ولابد من «إعادة وجود» هذة «الأمة» لكى يؤدى الإسلام دوره المرتقب فى قيادة البشرية مرة أخرى .

لابد من «بعث» لتلك الأمة التى واراها ركام الأجيال وركام التصورات ، وركام الأوضاع ، وركام الأنظمة ، التى لا صلة لها بالإسلام ، ولا بالمنهج الإسلامى .. وإن كانت ما تزال تزعم أنها قائمة فيما يسمى «العالم الإسلامى» ! ! !

وأنا أعرف أن المسافة بين محاولة «البعث» وبين تسلم «القيادة» مسافة شاسعة .. فقد غابت الأمة المسلمة عن «الوجود» وعن «الشهود» دهرًا طويلاً . وقد تولت قيادة البشرية أفكار أخرى وأمم أخرى ، وتصورات أخرى وأوضاع أخرى فترة طويلة . وقد أبدعت العبقرية الأوروبية فى هذه الفترة رصيدًا ضخمًا من «العلم» و «الثقافة» و

« الأنظمة » و « الإنتاج المادى » .. وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته ، ولا تفرِّط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة ! وبخاصة أن ما يسمى « العالم الإسلامى » يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة !

ولكن لابد ـ مع هذه الاعتبارات كلها ـ من « البعث الإسلامى » مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تسلم القيادة . فمحاولة البعث الإسلامى هى الخطوة الأولى التى لا يمكن تخطيها !

* * *

ولكى نكون على بيِّنة من الأمر ، ينبغى أن ندرك ـ على وجه التحديد ـ مؤهلات هذه الأمة للقيادة البشرية ، كى لا نخطىء عناصرها فى محاولة البعث الأولى .

إن هذه الأمة لا تملك الآن ـ وليس مطلوبًا منها ـ أن تقدم للبشرية تفوقًا خارقًا فى الإبداع المادى ، يحنى لها الرقاب ، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية .. فالعبقرية الأوروبية قد سبقته فى هذا المضمار سبقًا واسعًا . وليس من المنتظر ـ خلال عدة قرون على الأقل ـ التفوق المادى عليها !

فلابد إذن من مؤهل آخر ! المؤهل الذى تفتقده هذه الحضارة !

إن هذا لا يعنى أن نهمل الإبداع المادى . فمن واجبنا أن نحاول فيه جهدنا . ولكن لا بوصفه « المؤهل » الذى نتقدم به لقيادة البشرية فى المرحلة الراهنة . إنما بوصفه ضرورة ذاتية لوجودنا . كذلك بوصفه واجبًا يفرضه علينا « التصور الإسلامى » الذى ينوط بالإنسان خلافة الأرض ،

ويجعلها ـ تحت شروط خاصة ـ عبادة لله ، وتحقيقًا لغاية الوجود الإنسانى .

لابد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية ـ غير الإبداع المادى ـ ولن يكون هذا المؤهل سوى « العقيدة » و « المنهج » الذى يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية ، تحت إشراف تصور آخر يلبِّى حاجة الفطرة كما يلبِّيها الإبداع المادى . وأن تتمثل العقيدة والمنهج فى تجمع إنسانى . أى فى مجتمع مسلم .

* * *

إنَّ العالم يعيش اليوم كله فى « جاهلية » من ناحية الأصل الذى تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها . جاهلية لا تخفف منها شيئًا هذه التيسيرات المادية الهائلة . وهذا الإبداع المادى الفائق !

هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية .. وهى الحاكمية .. إنها تسند الحاكمية إلى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله للحياة . وفيما لم يأذن به الله .. فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده .. وما مهانة « الإنسان » عامة فى الأنظمة الجماعية . وما ظلم « الأفراد » والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار فى النظم « الرأسمالية » إلا أثرًا من آثار الاعتداء على سلطان الله . وإنكار الكرامة التى قررها الله للإنسان !

وفى هذا يتفرد المنهج الإسلامى .. فالناس فى كل نظام غير النظام الإسلامى ، يعبد بعضهم بعضًا ـ فى صورة من الصور ـ وفى المنهج الإسلامى وحده يتحرر الناس جميعًا من عبادة بعضهم لبعض ، بعبادة الله وحده ، والتلقى من الله وحده . والخضوع لله وحده .

وهذا هو مفترق الطريق .. وهذا كذلك هو التصور الجديد الذى نملك إعطاءه للبشرية ـ هو وسائر ما يترتب عليه من آثار عميقة فى الحياة البشرية الواقعية ـ وهذا هو الرصيد الذى لا تملكه البشرية ، لأنه ليس من «منتجات» الحضارة الغربية ، وليس من منتجات العبقرية الأوروبية ! شرقية كانت أو غربية .

* * *

إننا ـ دون شك ـ نملك شيئًا جديدًا جدَّة كاملة . شيئًا لا تعرفه البشرية . ولا تملك هى أن «تنتجه» ـ !

ولكن هذا الجديد ، لابد أن يتمثل ـ كما قلنا ـ فى واقع عملى . لابد أن تعيش به أمة .. وهذا يقتضى عملية «بعث» فى الرقعة الإسلامية هذا البعث الذى يتبعه ـ على مسافة ما بعيدة أو قريبة ـ تسلم قيادة البشرية .

فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامى ؟

إنه لابد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضى فى الطريق . تمضى فى خضم الجاهلية الضاربة الأطناب فى أرجاءالأرض جميعًا . تمضى وهى

تزاول نوعًا من العزلة من جانب ، ونوعًا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة ..

ولابد لهذه الطليعة التى تعزم هذه العزمة من « معالم فى الطريق » معالم تعرف منها طبيعة دورها ، وحقيقة وظيفتها ، وصلب غايتها . ونقطة البدء فى الرحلة الطويلة .. كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب فى الأرض جميعًا .. أين تلتقى مع الناس وأين تفترق ؟ ما خصائصها هى وما خصائص الجاهلية من حولها ؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها ؟ ثم تعرف من أين تتلقى – فى هذا كله – وكيف تتلقى ؟

هذه المعالم لابد أن تقام من المصدر الأول لهذه العقيدة .. القرآن .. ومن توجيهاته الأساسية ، ومن التصور الذى أنشأه فى نفوس الصفوة المختارة . التى صنع الله بها فى الأرض ما شاء أن يصنع ، والتى حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير .

* * *

لهذه الطليعة المرجوة المرتقبة كتبت « معالم فى الطريق » . منها أربعة فصول مستخرجة من كتاب « فى ظلال القرآن » مع تعديلات وإضافات مناسبة لموضوع كتاب المعالم[1] . ومنها ثمانية فصول – غير هذه

---

(١) « طبيعة المنهج القرآنى » .. و « التصور الإسلامى والثقافة » و « الجهاد فى سبيل الله » و « نشأة المجتمع المسلم وخصائصه » .

التقدمة ـ مكتوبة فى فترات حسبما أوحت به اللفتات المتوالية إلى المنهج الربانى الممثل فى القرآن الكريم .. وكلها يجمعها ـ على تفرقها ـ أنها معالم فى الطريق ، كما هو الشأن فى معالم كل طريق ! وهى فى مجموعها تمثل المجموعة الأولى من هذه «المعالم» والتى أرجو أن تتبعها مجموعة أخرى أو مجموعات ، كلما هدانى الله إلى معالم هذا الطريق !

وبالله التوفيق .

* * *

جيلٌ قرآنيٌّ فريد

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغى أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية فى كل أرض وفى كل زمان . وأن يقفوا أمامها طويلاً . ذلك أنها ذات أثر حاسم فى منهج الدعوة واتجاهها .

لقد خرَّجت هذه الدعوة جيلاً من الناس – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – جيلاً مميزًا فى تاريخ الإسلام كله وفى تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى .. نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل ذلك العدد الضخم ، فى مكان واحد ، كما وقع فى الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة .

هذه ظاهرة واضحة واقعة ، ذات مدلول ينبغى الوقوف أمامه طويلاً ، لعلنا نهتدى إلى سرِّه .

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا ، وحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهديه العملى ، وسيرته الكريمة ، كلها بين أيدينا كذلك ، كما كانت بين أيدى ذلك الجيل الأول ، الذى لم يتكرر فى التاريخ .. ولم يغب إلا شخص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهل هذا هو السر ؟

لو كان وجود شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتميًّا لقيام هذه الدعوة ، وإيتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة . وما وكّل إليها أمر الناس في هذه الأرض . إلى آخر الزمان ..

ولكن الله ـ سبحانه ـ تكفل بحفظ الذِّكْر ، وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمكن أن تؤتى ثمارها . فاختاره إلى جواره بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الرسالة ، وأبقى هذا الدِّين من بعده إلى آخر الزمان .. وإذن فإن غيبة شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها .

* * *

فلنبحث إذن وراء سبب آخر . لننظر فى النبع الذى كان يستقى منه هذا الجيل الأول ، فلعل شيئًا قد تغير فيه . ولننظر فى المنهج الذى تخرجوا عليه ، فلعل شيئًا قد تغير فيه كذلك .

كان النبع الأول الذى استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده . فما كان حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع . فعندما سُئلت عائشة رضى الله عنها ـ عن خُلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : «كان خُلقه القرآن»[1] .

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذى يستقون منه ، ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها

---

(١) أخرجه النسائى .

حضارة ، ولا ثقافة ، ولا علم ، ولا مؤلفات ، ولا دراسات .. كلا !
فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذى ما تزال أوروبا تعيش عليه ، أو على امتداده . وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربى حتى اليوم . وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك . وحضارات أخرى قاصية ودانية : حضارة الهند وحضارة الصين إلخ . وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها ، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان فى قلب الجزيرة .. فلم يكن إذن عن فقر فى الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده .. فى فترة تكونه .. وإنما كان ذلك عن «تصميم» مرسوم ، ونهج مقصود . يدل على هذا القصد غضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد رأى فى يد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صحيفة من التوراة . وقوله : «إنه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعنى»[1] .

وإذن فقد كان هناك قصد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقصر النبع الذى يستقى منه ذلك الجيل .. فى فترة التكوّن الأولى .. على كتاب الله وحده ، لتخلص نفوسهم له وحده . ويستقيم عودهم على منهجه وحده . ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يستقى من نبع آخر .

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبى عن جابر .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد صنع جيل خالص القلب . خالص العقل . خالص التصور . خالص الشعور . خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهى ، الذى يتضمنه القرآن الكريم .

ذلك الجيل استقى إذن من ذلك النبع وحده . فكان له فى التاريخ ذلك الشأن الفريد .. ثم ما الذى حدث ، اختلطت الينابيع .! صبت فى النبع الذى استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات . واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والأصول أيضًا . وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل أبدًا .

وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملاً أساسيًا من عوامل ذلك الاختلاف البيِّن بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد .

* * *

هناك عامل أساسى آخرْ غير اختلاف طبيعة النبع . ذلك هو اختلاف منهج التلقى عما كان عليه فى ذلك الجيل الفريد ..

إنهم - فى الجيل الأول - لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع . لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته . إنما كان يتلقى القرآن

ليتلقى أمر الله فى خاصة شأنه وشأن الجماعة التى يعيش فيها ، وشأن الحياة التى يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندى فى الميدان « الأمر اليومى » ليعمل به فور تلقيه ! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه فى الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه [1]

هذا الشعور .. شعور التلقى للتنفيذ .. كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ، ويخفف عنهم ثقل التكاليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوله فى نفوسهم وفى حياتهم إلى منهج واقعى ، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا فى بطون الصحائف ، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة .

إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح : روح المعرفة المنشئة للعمل . إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلى ، ولا كتاب أدب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ ـ وإن كان هذا كله من محتوياته ـ إنما جاء ليكون منهاج حياة . منهاجًا إلٰهيًّا خالصًا . وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقًا ، يتلو بعضه بعضًا :

---

(١) ذكره ابن كثير فى مقدمة التفسير .

«وقرآنًا فَرَقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلاً» ..
[الإسراء : ١٠٦]

لم ينزل هذا القرآن جملة . إنما نزل وفق الحاجات المتجددة ، ووفق النمو المطَّرِد فى الأفكار والتصورات ، والنمو المطَّرِد فى المجتمع والحياة . ووفق المشكلات العملية التى تواجهها الجماعة المسلمة فى حياتها الواقعية . وكانت الآية أو الآيات تنزل فى الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما فى نفوسهم ، وتصوِّر لهم ما هم فيه من الأمر . وترسم لهم منهج العمل فى الموقف ، وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك ، وتربطهم فى هذا كله بالله ربهم ، وتعرِّفه لهم بصفاته المؤثرة فى الكون ؛ فيحسون. حينئذ أنهم يعيشون مع الملأ الأعلى ، تحت عين الله . فى رحاب القدرة . ومن ثم يتكيفون فى واقع حياتهم ، وفق ذلك المنهج الإلهى القويم .

إن منهج التلقى للتنفيذ والعمل هو الذى صنع الجيل الأول . ومنهج التلقى للدراسة والمتاع هو الذى خرَّج الأجيال التى تليه . وما من شك أن هذا العامل الثانى كان عاملاً أساسيًا كذلك فى اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .

* * *

هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل .

لقد كان الرجل حين يدخل فى الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية . كان يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهدًا جديدًا ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى

الجاهلية . وكان يقف من كلِ ما عهده فى جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذى يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ! وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْى الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة ، وإذا اجتذبته عاداته مرة ، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة .. شعر فى الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك فى قرارة نفسه أنه فى حاجة إلى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْى القرآنى .

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم فى جاهليته وحاضره فى إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة فى صلاته بالمجتمع الجاهلى من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائيًا من بيئته الجاهلية واتصل نهائيًا ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطى فى عالم التجارة والتعامل اليومى ، فالعزلة الشعورية شىء والتعامل اليومى شىء آخر .

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعُرْفها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامى الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته .

وكان هذا مفرق الطريق ، وكان بدء السير فى الطريق الجديد ، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التى يتواضع عليها المجتمع الجاهلى ، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه . ولم يكن

هناك إلا ما يلقاه المسلم من أذى وفتنة ، ولكنه هو فى ذات نفسه قد عزم وانتهى ، ولم يعد لضغط التصور الجاهلى ، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلى عليه من سبيل .

نحن اليوم فى جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الإسلام أو أظلم . كل ما حولنا جاهلية .. تصورات الناس وعقائدهم . عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم . حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيرًا إسلاميًا .. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية ! !

لذلك لا تستقيم قيم الإسلام فى نفوسنا . ولا يتضح تصور الإسلام فى عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذى أنشأه الإسلام أول مرة .

فلا بد إذن ـ فى منهج الحركة الإسلامية ـ أن نتجرد فى فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التى نعيش فيها ونستمد منها . لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذى استمد منه أولئك الرجال ، النبع المضمون أنه لم يختلط ولم تشبه شائبة . نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنسانى ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق ، وجود الله سبحانه .. ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة ، وقيمنا وأخلاقنا ، ومناهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة .

ولا بد أن نرجع إليه ـ حين نرجع ـ بشعور التلقى للتنفيذ والعمل ؛ لا بشعور الدراسة والمتاع . نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون ،

لنكون . وفى الطريق سنلتقى بالجمال الفنى فى القرآن وبالقصص الرائع فى القرآن ، وبمشاهد القيامة فى القرآن .. وبالمنطق الوجدانى فى القرآن .. وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع . ولكننا سنلتقى بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول . إن هدفنا الأول أن نعرف : ماذا يريد منا القرآن أن نعمل ؟ ما هو التصور الكلى الذى يريد منا أن نتصور ؟ كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله ؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعى فى الحياة ؟

ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلى والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية .. فى خاصة نفوسنا .. ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلى ولا أن ندين بالولاء له ، فهو بهذه الصفة .. صفة الجاهلية .. غير قابل لأن نصطلح معه . إن مهمتنا أن نغيِّر من أنفسنا أولاً لنغير هذا المجتمع أخيرًا .

إن مهمتنا الأولى هى تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه . هذا الواقع الذى يصطدم اصطدامًا أساسيًا بالمنهج الإسلامى ، وبالتصور الإسلامى . والذى يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش .

إن أولى الخطوات فى طريقنا هى أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلى وقيمه وتصوراته . وألا نعدِّل نحن فى قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيرًا لنلتقى معه فى منتصف الطريق . كلا ! إننا وإياه على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق !

وسنلقى فى هذا عنتًا ومشقة . وستفرض علينا تضحيات باهظة ،

ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذى أقر الله به منهجه الإلهى ، ونصره على منهج الجاهلية .

وإنه لمن الخير أن ندرك دائمًا طبيعة منهجنا ، وطبيعة موقفنا ، وطبيعة الطريق الذى لا بد أن نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد ..

* * *

طبيعة المنهج القرآني *

ظل القرآن المكّى ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة عشر عامًا كاملة ، يحدِّثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة لا تتغير ، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر . ذلك الأسلوب القرآنى يدعها فى كل عرض جديدة ، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى .

لقد كان يعالج القضية الأولى ، والقضية الكبرى ، والقضية الأساسية ، فى هذا الدين الجديد .. قضية العقيدة .. ممثلة فى قاعدتها الرئيسية .. الألوهية والعبودية ، وما بينهما من علاقة .

لقد كان يخاطب بهذه الحقيقة «الإنسان» .. الإنسان بما أنه إنسان .. وفى هذا المجال يستوى الإنسان العربى فى ذلك الزمان والإنسان العربى فى كل زمان ، كما يستوى الإنسان العربى وكل إنسان . فى ذلك الزمان وفى كل زمان !

إنها قضية «الإنسان» التى لا تتغير . لأنها قضية وجوده فى هذا الكون وقضية مصيره . قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء .

(*) مستخرج من كتاب : «فى ظلال القرآن» من التعريف بسورة الأنعام فى الجزء السابع من الطبعة المشروعة التى تصدر عن دار الشروق مع إضافات قليلة .

وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء . وهى قضية لا تتغير ، لأنها قضية الوجود والإنسان .

لقد كان هذا القرآن المكى يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله .. كان يقول له : من هو ؟ ومن أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب فى نهاية المطاف ؟ من ذا الذى جاء به من العدم والمجهول ؟ ومن ذا الذى يذهب به ، وما مصيره هناك ؟ وكان يقول له : ما هذا الوجود الذى يحسه ويراه ، والذى يحس أن وراءه غيبًا يستشرفه ولا يراه ؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار ؟ من ذا يدبره ؟ ومن ذا يحوره ؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذى يراه ؟ .. وكان يقول له كذلك : كيف يتعامل مع خالق هذا الكون ، ومع الكون أيضًا ، كما يبين له : كيف يتعامل العباد مع العباد ؟

وكانت هذه هي القضية الكبرى التى يقوم عليها وجود « الإنسان » . وستظل هى القضية الكبرى التى يقوم عليها وجوده على توالى الأزمان .

وهكذا انقضت ثلاثة عشر عامًا كاملة فى تقرير هذه القضية الكبرى ، القضية التى ليس وراءها شيء فى حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات .

ولم يتجاوز القرآن المكى هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة ، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان ، وأنها استقرت استقرارًا مكينًا ثابتًا فى قلوب العصبة المختارة من بنى الإنسان ، التى قدَّر الله أن يقوم هذا الدين عليها ، وأن تتولى هى إنشاء النظام الواقعى الذى يتمثل فيه هذا الدين .

وأصحاب الدعوة إلى دين الله ، وإلى إقامة النظام الذى يتمثل فيه هذا الدين فى واقع الحياة ، خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة ، ظاهرة تصدى القرآن المكى خلال ثلاثة عشر عامًا لتقرير هذه العقيدة ، ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شىء من تفصيلات النظام الذى يقوم عليها ، والتشريعات التى تحكم المجتمع المسلم الذى يعتنقها .

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هى القضية التى تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة ، وأن يبدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى خطواته فى الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا : أن لا إله الا الله ، وأن يمضى فى دعوته يعرِّف الناس بربهم الحق ، ويُعَبِّدَهم له دون سواه .

ولم تكن هذه ـ فى ظاهر الأمر وفى نظرة العقل البشرى المحجوب ـ هى أيسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى «إله» ومعنى : «لا إله إلا الله» . كانوا يعرفون أن الألوهية تعنى الحاكمية العليا .. وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله ـ سبحانه ـ بها ، معناه نزع السلطان الذى يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، وردّه كله إلى الله .. السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة ، والسلطان فى المال ، والسلطان فى القضاء ، والسلطان فى الأرواح والأبدان .. كانوا يعلمون أن «لا إله إلا الله» ثورة على السلطان الأرضى الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله .. ولم يكن يغيب عن العرب ـ وهم يعرفون لغتهم جيدًا

ويعرفون المدلول الحقيقى لدعوة ـ «لا إله الا الله» ـ ماذا تعنى هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة ـ أو هذه الثورة ـ ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوها هذه الحرب التى يعرفها الخاص والعام ..

فلِمَ كانت هذه نقطة البدء فى هذه الدعوة ؟ وَلِمَ اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكلِ هذا العناء ؟

* * *

لقد بُعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست فى أيدى العرب ، إنما هى فى أيدى غيرهم من الأجناس !

بلاد الشام كلها فى الشمال خاضعة للروم ، يحكمها أمراء عرب من قِبَل الروم ، وبلاد اليمن كلها فى الجنوب خاضعة للفرس ، يحكمها أمراء عرب من قبل الفرس ، وليست فى أيدى العرب إلا الحجاز وتهامة ونجد ، وما إليها من الصحارى القاحلة التى تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك !

وربما قيل : أنه كان فى استطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصادق الأمين الذى حكَّمه أشراف قريش قبل ذلك فى وضع الحجر الأسود ، وارتضوا حكمه ، منذ خمسة عشر عامًا قبل الرسالة ، والذى هو فى الذؤابة من بنى هاشم أعلى قريش نسبًا .. إنه كان فى استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب التى أكلتها الثارات ومزقتها النزاعات ، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة

من الامبراطوريات المستعمرة .. الرومان فى الشمال والفرس فى الجنوب .. وإعلاء راية العربية والعروبة ، وإنشاء وحدة قومية فى كل أرجاء الجزيرة .

وربما قيل : أنه لو دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة ، بدلا من أن يعانى ثلاثة عشر عامًا فى اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان فى الجزيرة !

وربما قيل : أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خليقًا ـ بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ، وبعد أن يولّوه فيهم القيادة والسيادة ، وبعد استجماع السلطان فى يديه ، والمجد فوق مفرقيه ـ أن يستخدم هذا كله فى إقرار عقيدة التوحيد التى بعث بها ، فى تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبَّدهم لسلطانه البشرى !

ولكن الله ـ سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ، لم يوجِّه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بـ« لا إله إلا الله » ، وأن يحتمل هو والقلة التى تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ إن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يُعَنِّت رسوله والمؤمنين معه . إنما هو ـ سبحانه ـ يعلم أن ليس هذا هو الطريق ، ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت رومانى أو طاغوت فارسى ، إلى يد طاغوت عربى . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الأرض لله ، ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية : «لا إله إلا الله» . وليس الطريق أن يتحرر الناس فى هذه الأرض من طاغوت رومانى أو فارسى ، إلى طاغوت عربى . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الناس عبيد

لله وحده ، ولا يكونون عبيدًا لله وحده إلا أن ترتفع راية : «لا إله إلا الله» – لا إله إلا الله كما يدركها العربى العارف بمدلولات لغته ، : لا حاكمية إلا الله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، ولأن «الجنسية» التى يريدها الإسلام للناس هى جنسية العقيدة ، التى يتساوى فيها العربى والرومانى والفارسى وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق ..

* * *

وبُعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذا الدين ، والمجتمع العربى كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعًا للثروة والعدالة . قلة قليلة تملك المال والتجارة ، وتتعامل بالرِّبا فتتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ، وجماهير كثيرة ضائعة من المال والمجد جميعًا !

وربما قيل : أنه كان فى استطاعة محمد – صلى الله عليه وسلم – أن يرفعها راية اجتماعية ، وأن يثيرها حربًا على طبقة الأشراف ، وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ، ورد أموال الأغنياء على الفقراء !

وربما قيل : أنه لو دعا يومها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربى صفَّين : الكثرة الغالبة مع الدعوة الجديدة فى وجه طغيان المال والشرف والجاه ، والقلة القليلة مع هذه الموروثات ، بدلا من أن يقف المجتمع كله صفًّا فى وجه «لا إله إلا الله» التى لم يرتفع إلى أفقها فى ذلك الحين إلا الأفذاذ من الناس !

وربما قيل : أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خليقًا بعد أن تستجيب له الكثرة ، وتوليه قيادها ، فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها ، أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه فى إقرار عقيدة التوحيد التى بعثه بها ربه ، وفى تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبَّدهم لسلطانه البشرى !

ولكن الله ـ سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ، لم يوجهه هذا التوجيه ..

لقد كان الله ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا ليس هو الطريق .. كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لابد أن تنبثق فى المجتمع من تصور اعتقادى شامل . يرد الأمر كله لله ، ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضى به الله من عدالة التوزيع ، ومن تكافل الجميع ، ويستقر معه فى قلب الآخذ والمأخوذ منه سواء أنه ينفذ نظامًا شرعه الله ، ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى فى الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلىء قلوب بالطمع ، ولا تمتلىء قلوب بالحقد ، ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ، وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ، كما يقع فى الأوضاع التى تقوم على غير «لا إله إلا الله» .

* * *

وبُعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمستوى الأخلاقى فى الجزيرة العربية فى الدرك الأسفل فى جوانب منه شتى ـ إلى جانب ما كان فى المجتمع من فضائل الخامة البدوية .

كان التظالم فاشيًا فى المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر «زهير بن أبى سلمى» :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدَّم ، ومن لا يظلمِ الناس يُظلمِ

ويعبر عنه القول المتعارف فى الجاهلية : «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» .

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ، ومن مفاخره كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلى بجملته .. كالذى يقوله طرفة بن العبد :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى — وجدِّك لم أحفل متى قام عوَّدى
فمنهن سبق العاذلات بشربة — كُمُيت متى ما تُعلَ بالماء تزبدْ
ومازال تشرابى الخمور ولذتى — وبذلى وإنفاقى طريفى وتالدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها — وأفردت إفراد البعير المعبَّد

* * *

وكانت الدعارة ـ فى صور شتى ـ من معالم هذا المجتمع ـ شأنه شأن كل مجتمع جاهلى قديم أو حديث ـ كالذى روته عائشة رضى الله عنها :

«إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم .. يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها .. والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ إذا طهرت من

طمثها ــ : ارسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستضع منه ، فاذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .. ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يّصيبها . فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل .. والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها .. وهن البغايا .. كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع عن ذلك »[1] .

وربما قيل : أنه كان فى استطاعة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يعلنها دعوة إصلاحية ، تتناول تقويم الأخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتزكية النفوس .

وربما قيل : أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان واجدًا وقتها ــ كما يجد كل مصلح أخلاق فى أية بيئة ــ نفوسًا طيبة يؤذيها هذا الدنس ،

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح .

وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهر .

وربما قال قائل : أنه لو صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لاستجابت له ـ فى أول الأمر ـ جمهرة صالحة ، تتطهر أخلاقها ، وتزكوا أرواحها ، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها ، بدلاً من أن تثير دعوة « لا إله إلا الله » المعارضة القوية منذ أول الطريق .

ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم ، كما تقرر السلطة التى تستند إليها هذه الموازين والقيم ، والجزاء الذى تملكه هذه السلطة ، وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وإنه قبل تقرير هذه العقيدة ، وتحديد هذه السلطة تظل القيم كلها متأرجحة وتظل الأخلاق التى تقوم عليها متأرجحة كذلك ، بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلمَّا تقررت العقيدة ـ بعد الجهد الشاق ـ وتقررت السلطة التى ترتكن إليها هذه العقيدة .. لَمَّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده .. لَمَّا تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء .. لَمَّا تقررت فى القلوب « لا إله إلا الله » .. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون .. تطهرت الأرض من « الرومان والفرس » .. لا ليتقرر فيها سلطان « العرب » . ولكن ليتقرر فيها سلطان « الله » .. لقد تطهرت من سلطان « الطاغوت » كله .. رومانيًا ، وفارسيًا ، وعربيًا ، على السواء .

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعى بجملته . وقام « النظام الإسلامى » . يعدل بعدل الله ، ويزن بميزان الله ، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ، ويسميها راية « الإسلام » . لا يقرن إليها اسمًا آخر . ويكتب عليها : « لا إله إلا الله » !

وتطهرت النفوس والأخلاق ، وزكت القلوب والأرواح . دون أن يحتاج الأمر حتى للحدود والتعازير التى شرعها الله ــ إلا فى الندرة النادرة ــ لأن الرقابة قامت هناك فى الضمائر ، ولأن الطمع فى رضى الله وثوابه ، والحياة والخوف من غضبه وعقابه ، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات .

وارتفعت البشرية فى نظامها ، وفى أخلاقها ، وفى حياتها كلها ، إلى القمة السامقة التى لم ترتفع إليها من قبل قط ، والتى لم ترتفع إليها من بعد إلا فى ظل الإسلام .

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل فى ضمائرهم وفى حياتهم ، فى صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وُعِدُوا على إقامة هذا الدين وعدًا واحدًا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان .. ولا حتى لهذا الدين على أيديهم .. وعدًا واحدًا لا يتعلق بشىء فى هذه الدنيا .. وعدًا واحدًا هو الجنة . هذا كل ما وعدوهُ على الجهاد المضنى ، والابتلاء الشاق ، والمضى فى الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذى يكرهه أصحاب السلطان فى كل زمان وفى كل مكان . وهو : « لا إله إلا الله » !

فَلَمَّا أن ابتلاهم الله فصبروا . ولَمَّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ، ولَمَّا أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء فى هذه الأرض ـ كائنًا ما كان هذا الجزاء . ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم . وقيام هذا الدين فى الأرض بجهدهم ـ ولَمَّا لم يعد فى نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم . ولا اعتزاز بوطن ولا أرض ، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت .. لَمَّا أن علم الله منهم ذلك كله ، علم أنهم قد أصبحوا ـ إذن ـ أمناء على هذه الأمانة الكبرى .. أمناء على العقيدة ، التى يتفرد فيها الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية فى القلوب والضمائر ، وفى السلوك والشعائر ، وفى الأرواح والأموال ، وفى الأوضاع والأحوال .. وأمناء على السلطان الذى يوضع فى أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها ، وعلى عدل الله يقيمونه ، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شىء لأنفسهم ، ولا لعشيرتهم ، ولا لقومهم ، ولا لجنسهم . إنما يكون السلطان الذى فى أيديهم لله ، ولدينه وشريعته ؛ لأنهم يعلمون أنه من الله ، هو الذى آتاهم إياه .

ولم يكن شىء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء . وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها .. راية لا إله إلا الله .. ولا ترفع معها سواها . وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق فى ظاهره ، المبارك الميسر فى حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله ، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية ، أو دعوة اجتماعية ، أو دعوة أخلاقية .. أو رفعت أى شعار إلى جانب شعارها الواحد : «لا إله إلا الله»

ذلك شأن القرآن المكّي كله فى تقرير : «لا إله إلا الله» فى القلوب والعقول ، واختيار هذا الطريق ـ على مشقته فى الظاهر ـ وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى ، والإصرار على هذا الطريق .

فأما شأن هذا القرآن فى تناول قضية الاعتقاد وحدها ، دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذى يقوم عليها ، والشرائع التى تنظم المعاملات فيها ، فذلك كذلك مما ينبغى أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية .

إن طبيعة هذا الدين هى التى قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير .. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة ، الوارفة المديدة الظلال ، المتشابكة الأغصان ، الضاربة فى الهواء .. لابد لها أن تضرب بجذورها فى التربة على أعماق بعيدة ، وفى مساحات واسعة ، تناسب ضخامتها وامتدادها فى الهواء .. فكذلك هذا الدين .. إن نظامه يتناول الحياة كلها ، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ، وينظم حياة الإنسان ـ لا فى الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك فى الدار الآخرة ، ولا فى عالم الشهادة وحده ولكن كذلك فى عالم الغيب المكنون عنها ، ولا فى المعاملات المادية الظاهرة وحدها ولكن كذلك فى أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا ـ فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية ، ولابد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضًا ..

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ، يحدد منهجه فى بناء نفسه وفى امتداده ، ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة

واستغراقها لشعاب النفس كلها .. ضرورة من ضروريات النشأة الصحيحة ، وضمانًا من ضمانات الاحتمال ، والتناسق بين الظاهر من الشجرة فى الهواء والضارب من جذورها فى الأعماق .

ومتى استقرت عقيدة : «لا إله إلا الله» فى أعماقها الغائرة البعيدة ، استقر معها فى نفس الوقت النظام الذى تتمثل فيه «لا إله إلا الله» ، وتعين أنه النظام الوحيد الذى ترتضيه النفوس التى استقرت فيها العقيدة ، واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام ، حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته ، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته . فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان .. وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس ـ فيما بعد ـ تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول ، لا تعترض على شىء منه فور صدوره إليها ، ولا تتلكأ فى تنفيذه بمجرد تلقيها له .. وهكذا أبطلت الخمر ، وأبطل الربا ، وأبطل الميسر ، وأبطلت العادات الجاهلية كلها .. أبطلت بآيات من القرآن ، أو كلمات من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما الحكومات الأرضية تجهد فى شىء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ، ونظمها وأوضاعها ، وجندها وسلطاتها ، ودعايتها وإعلامها ، فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات ، بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات[1] !

---

(١) يراجع كيف حرم الله الخمر فى الجزء الخامس من : «فى ظلال القرآن» فى الطبعة المشروعة التى تصدر عن دار الشروق . وكيف عجزت أمريكا عن ذلك فى كتاب : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد أبى الحسن الندوى منقولاً عن كتاب (تنقيحات) للسيد أبى الأعلى المودودى .

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى فى هذا المنهج القويم . إن هذا الدين منهج عملى حركى جاد .. جاء ليحكم الحياة فى واقعها ، ويواجه هذا الواقع ليقضى فيه بأمره .. يقره ، أو يعدله ، أو يغيره من أساسه .. ومن ثم فهو لا يشرِّع إلا لحالات واقعة فعلاً ، فى مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده ..

إنه ليس « نظرية » تتعامل مع « الفروض » !.. إنه « منهج » ، يتعامل مع « الواقع » !.. فلا بد أولاً أن يقوم المجتمع المسلم الذى يقر عقيدة : أن لا إله إلاَّ الله ، وأن الحاكمية ليست إلا لله ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ، ويرفض شرعية أى وضع لا يقوم على هذه القاعدة ..

وحين يقوم هذا المجتمع فعلاً ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع .. وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين فى تقرير النظم وفى سن الشرائع لقوم مستسلمين أصلاً للنظم والشرائع ، رافضين أصلاً لغيرها من النظم والشرائع ..

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من سلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع فى هذا المجتمع حتى يكون للنظام هيبته ، ويكون للشريعة جديتها .. فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من واقعية تقتضى الأنظمة والشرائع من فورها ..

والمسلمون فى مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله .. ومن ثم لم ينزِّل الله لهم فى هذه الفترة تنظيمات وشرائع ؛ وإنما

نزّل لهم عقيدة ، وخلقًا منبثقًا من هذه العقيدة بعد استقرارها فى الأعماق البعيدة .. فلما أن صارت لهم دولة فى المدينة ذات سلطان ، تنزلت عليهم الشرائع ، وتقرر لهم النظام الذى يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ، والذى تكفل له الدولة بسلطانها الجدية النفاذ .

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع فى مكة . ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة فى المدينة ! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين !.. إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية !.. إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً .. إنما يواجه الواقع حين يكون واقع مجتمع مسلم مستسلم لشريعة الله رافض لشريعة سواه بحجمه وشكله وملابساته وظروفه ، ليشرع له ، وفق حجمه وشكله وملابساته وظروفه .

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ نظريات وأن يصوغ قوالب نظام ، وأن يصوغ تشريعات للحياة .. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلاً تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها ، مع تملكه للسلطة التى تفرض هذا وتنفذه .. الذين يريدون من الإسلام هذا ، لا يدركون طبيعة هذا الدين ، ولا كيف يعمل فى الحياة .. كما يريد له الله ..

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه نظريات بشرية ، ومناهج بشرية ، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبى رغبات وقتية فى نفوسهم ، رغبات إنما تنشئها الهزيمة الداخلية فى أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة .. يريدون منه أن يصوغ نفسه فى قالب نظريات وفروض ، تواجه مستقبلاً غير موجود .. والله يريد لهذا

الدين أن يكون كما أراده .. عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير ، عقيدة مقتضاها ألاَّ يخضع الناس إلاَّ لله ، وألاَّ يتلقوا الشرائع إلاَّ منه دون سواه .. وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان الفعلي فى مجتمعهم ، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

هذا ما يريده الله لهذا الدين .. ولن يكون إلا ما يريده الله ، مهما كانت رغبات الناس !

كذلك ينبغى أن يكون مفهومًا لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعونَ الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة ــ حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ! ــ يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو «أولاً» إقرار عقيدة : «لا إله إلا الله» ــ بمدلولها الحقيقى ، وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم ، إقرارها فى ضمائرهم وشعائرهم ، وإقرارها فى أوضاعهم وواقعهم ..

ولتكن هذه القضية هى أساس دعوة الناس إلى الإسلام ، كانت هى أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة .. هذه الدعوة التى تكفل بها القرآن المكى طوال ثلاثة عشر عامًا كاملة .. فإذا دخل فى هذا الدين ــ بمفهومه هذا الأصيل ــ عصبة من الناس .. فهذه العصبة هى التى يطلق عليها إسم «المجتمع المسلم» .. المجتمع الذى يصلح لمزاولة النظام الإسلامى فى حياته الاجتماعية ، لأنه قرر بينه وبين نفسه أن تقوم حياته كلها على

هذا الأساس ، وألا يحكم فى حياته كلها إلا الله .

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامى عليه ، كما يأخذ هذا المجتمع نفسه فى سن التشريعات التى تقتضيها حياته الواقعية ، فى إطار الأسس العامة للنظام الإسلامى .. فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامى الواقعى العملى الجاد .

ولقد يخيل لبعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الربانى القويم ، المؤسس على حكمة العليم الحكيم وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة .. نقول : لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامى - بل التشريعات الإسلامية كذلك - على الناس ، مما ييسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس فى هذا الدين !

وهذا وَهْمٌ تنشئه العجلة ! وَهْمٌ كالذى كان يمكن أن يقترحه المقترحون : أن تقوم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أولها تحت راية قومية ، أو راية اجتماعية ، أو راية أخلاقية ، تيسيرًا للطريق !

إن القلوب يجب أن تخلص أولاً لله ، وتعلن عبوديتها له وحده ، بقبول شرعه وحده ، ورفض كل شرع آخر غيره .. من ناحية المبدأ .. قبل أن تخاطب بأى تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

إن الرغبة يجب أن تنبثق من إخلاص العبودية لله ، والتحرر من سلطان سواه ، لا من أن النظام المعروض عليها .. فى ذاته .. خير مما لديها من الأنظمة فى كذا وكذا على وجه التفصيل .

إن نظام الله خير فى ذاته ، لأنه من شرع الله .. ولن يكون شرع العبيد يومًا كشرع الله .. ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة . إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده أيًّا كان ، ورفض كل شرع غيره أيًّا كان ، هو ذاته الإسلام ، وليس للإسلام مدلول سواه ، فمن رغب فى الإسلام ابتداء فقد فصل فى القضية ، ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته .. فهذه إحدى بديهيات الإيمان !

* * *

وبعد ، فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكى قضية العقيدة فى خلال الثلاثة عشر عامًا .. إنه لم يعرضها فى صورة « نظرية » ولا فى صورة « لاهوت » ! ولم يعرضها فى صورة جدل كلامى كالذى زاوله ما يسمى « علم التوحيد » !

كلا ! لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة « الإنسان » بما فى وجوده هو وبما فى الوجود حوله من دلائل وإيحاءات .. كان يستنقذ فطرته من الركام ، ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ، ويفتح منافذ الفطرة ، لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها .

هذا بصفة عامة .. وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية .. كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة فى نفوس آدمية حاضرة واقعة .. ومن ثم لم يكن شكل « النظرية » هو الشكل الذى يناسب هذا الواقع الخاص . إنما هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوِّقات النفسية والواقعية فى النفوس الحاضرة الحية .. ولم يكن الجدل الذهنى ـ القائم على المنطق الشكلى ـ

الذى سار عليه فى العصور المتأخرة علم التوحيد ، هو الشكل المناسب كذلك .. فلقد كان القرآن يواجه « واقعًا » بشريًا كاملاً بكل ملابساته الحية ، ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها فى خضم هذا الواقع .. وكذلك لم يكن « اللاهوت » هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ، ولو أنها عقيدة ، إلا أنها تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملى ، ولا تقبع فى الزاوية الضيقة التى تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن ، وهو يبنى العقيدة فى ضمائر الجماعة المسلمة ، يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية فى ضميرها هى وأخلاقها وواقعها .. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا فى صورة « نظرية » ولا فى صورة « لاهوت » ، ولا فى صورة « جدل كلامى » .. ولكن فى صورة تجمع عضوى حيوى وتكوين تنظيمى مباشر للحياة ، ممثل فى الجماعة المسلمة ذاتها ، وكان نمو الجماعة المسلمة فى تصورها الاعتقادى ؛ وفى سلوكها الواقعى وفق هذا التصور ، وفى دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها .. كان هذا النمو ذاته ممثلاً تمامًا لنمو البناء العقيدى ، وترجمة حية له .. وهذا هو منهج الإسلام الذى يمثل طبيعته كذلك .

وإنه لمن الضرورى لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه فى الحركة على هذا النحو الذى بيَّناه . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التى طالت فى العهد المكى على هذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملى للحركة الإسلامية ، والبناء

الواقعى للجماعة المسلمة . لم تكن مرحلة تلقِّى « النظرية » ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدى للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلى معًا .. وهكذا ينبغى أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى .

هكذا ينبغى أن تطول مرحلة بناء العقيدة ، وأن تتم خطوات البناء على مهل ، وفى عمق وتثبت .. ثم هكذا ينبغى ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة ـ أولاً بأول ـ فى صورة حية ، متمثلة فى ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة فى بناء جماعى وتجمع حركى ، يعبر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها ، ومتمثلة فى حركة واقعية تواجه الجاهلية ، وتخوض معها المعركة فى الضمير وفى الواقع كذلك ، لتتمثل العقيدة حية ، وتنمو نموًا حيًا فى خضم المعركة .

وخطأ أى خطأ ـ بالقياس إلى الإسلام ـ أن تتبلور العقيدة فى صورة « نظرية » مجردة للدراسة الذهنية .. المعرفية الثقافية .. بل خطر أى خطر كذلك .

إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عامًا كاملة فى بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى .. كلا ! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ، ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عامًا ، أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا « النظرية الإسلامية » .

ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يريد أمرًا آخر ، كان يريد منهجًا معينًا متفردًا . كان يريد بناء جماعة وبناء حركة وبناء عقيدة فى وقت واحد ..

كان يريد أن يبنى الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبنى العقيدة بالجماعة والحركة .. كان يريد أن تكون العقيدة هى واقع الجماعة الحركى الفعلى ، وأن يكون واقع الجماعة الحركى الفعلى هو الصورة المجسمة للعقيدة .. وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة ، فلم يكن هنالك بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذى يستغرقه بناء النفوس والجماعة .. حتى إذا نضج التكوين العقيدى كانت الجماعة هى المظهر الواقعى لهذا النضوج .

* * *

هذه هى طبيعة هذا الدين ـ كما تستخلص من منهج القرآن المكى ـ ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ، وألا نحاول تغييرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة ، وبها يصنع الأمة المسلمة فى كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة .

يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معًا ، فى تحويل العقيدة الإسلامية الحية التى تحب أن تتمثل فى واقع نَامٍ حى متحرك ، وفى تجمع عضوى حركى .. تحويلها عن طبيعتها هذه إلى « نظرية » للدراسة والمعرفة الثقافية ، لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ « نظرية إسلامية » .

إن العقيدة الإسلامية تحب أن تتمثل فى نفوس حية ، وفى تنظيم واقعى ، وفى تجمع عضوى ، وفى حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة فى نفوس أصحابها ـ بوصفهم

كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم ، وتنتزعها من الوسط الجاهلي ـ وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ـ ومن الحياة أيضًا ـ مساحة أضخم وأوسع وأشمل مما تشغله « النظرية » . وتشمل ـ فيما تشمل ـ مساحة النظرية ومادتها ، ولكنها لا تقتصر عليها .

إن التصور الإسلامي للألوهية ، وللوجود الكوني ، وللحياة ، وللإنسان .. تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي . وهو يكره ـ بطبيعته ـ أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي ، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل في أناسي ، وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية .. وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية ، حتى يكتمل نظريًا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعيًا ـ ولا ينفصل في صورة « النظرية » بل يظل ممثلاً في صورة « الواقع » الحركي ..

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ، ولا يتمثل من خلاله ، هو خطأ وخطر كذلك ، بالقياس إلى طبيعة هذا الدين وغايته ، وطريقة تركيبه الذاتي .

والله ـ سبحانه ـ يقول :

« وقرآنًا فَرَقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلاً » ..
[الإسراء : ١٠٦]

فالفرق مقصود . والمكث مقصود كذلك ، ليتم البناء التكويني ، المؤلف من عقيدة في صورة « منظمة حية » لا في صورة « نظرية » !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدًا أنه ـ كما إنه فى ذاته دين ربانى ـ فإن منهجه فى العمل منهج ربانى كذلك . متواف مع طبيعته ، وإنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه فى العمل .

ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين ـ كما إنه جاء ليغير التصور الاعتقادى ، ومن ثم يغير الواقع الحيوى ـ فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الذى يبنى به التصور الاعتقادى ، ويغير به الواقع الحيوى .. جاء ليبنى عقيدة وهو يبنى أمة .. ثم لينشىء منهج تفكير خاصًا به ، بنفس الدرجة التى ينشىء بها تصورًا اعتقاديًا وواقعًا حيويًا . ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص ، وتصوره الاعتقادى الخاص ، وبنائه الحيوى الخاص .. فكلها حزمة واحدة ..

فإذا نحن عرفنا منهجه فى العمل على النحو الذى بيناه ، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ، وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى ، إنما هو المنهج الذى لا يقوم بناء هذا الدين ـ فى أى وقت ـ إلا به .

إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب ، ولكن كانت وظيفته كذلك أن يغير منهج تفكيرهم ، وتناولهم للتصور وللواقع ، ذلك أنه منهج ربانى مخالف فى طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الربانى وإلى الحياة الربانية ، إلا عن طريق منهج تفكير ربانى كذلك ، المنهج الذى أراد الله أن يقيم منهج

تفكير الناس على أساسه ، ليصح تصورهم الاعتقادى وتكوينهم الحيوى .

* * *

نحن ، حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه «نظرية» للدراسة ، نخرج به عن طبيعة منهج التكوين الربانى ، وعن طبيعة منهج التفكير الربانى كذلك ، ونخضع الإسلام لمناهج التفكير البشرية ! كأنما المنهج الربانى أدنى من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لنرتقى بمنهج الله فى التصور والحركة ليوازى مناهج العبيد !

والأمر من هذه الناحية يكون خطيرًا ، والهزيمة تكون قاتلة .

إن وظيفة المنهج الربانى أن يعطينا ـ نحن أصحاب الدعوة الإسلامية ـ منهجًا خاصًا للتفكير ، نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة فى الأرض ، والتى تضغط على عقولنا ، وتترسب فى ثقافتنا .. فإذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته ، من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة ، كنا قد أبطلنا وظيفته التى جاء ليؤديها للبشرية ، وحرمنا أنفسنا فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلى السائد فى عصرنا ، وفرصة الخلاص من رواسبه فى عقولنا وتكويننا .

والأمر من هذه الناحية يكون خطيرًا كذلك ، والخسارة تكون قاتلة .

إن منهج التفكير والحركة فى بناء الإسلام ، لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادى والنظام الحيوى ، ولا ينفصل عنه كذلك .

ومهما يخطر لنا أن نقدم هذا التصور وهذا النظام فى صورة تعبيرية ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشىء «الإسلام» فى الأرض فى صورة حركة واقعية ، بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الإسلام فى هذه الصورة إلا المشتغلون فعلاً بحركة إسلامية واقعية ، وأن قصارى ما يفيده هؤلاء أنفسهم من تقديم الإسلام لهم فى هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذى وصلوا هم إليه فعلاً فى أثناء الحركة .

ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادى يجب أن يتمثل من فوره فى تجمع حركى ، وأن يكون التجمع الحركى فى الوقت ذاته تمثيلاً صحيحًا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادى .

ومرة أخرى أكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعى للإسلام الربانى ، وأنه منهج أعلى وأقوم ، وأشد فاعلية ، وأكثر انطباقًا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها فى الصورة الذهنية الباردة للناس ، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين فعلاً بحركة واقعية ، وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة حية ، تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظرى .

* * *

وإذا صح هذا فى أصل النظرية فهو أصح بطبيعة الحال فيما يختص بتقديم أسس النظام الذى يتمثل فيه التصور الإسلامى ، أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام .

إن الجاهلية التى حولنا ــ كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين

من أصحاب الدعوة الإسلامية ، فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الإسلامى ـ هى كذلك تتعمد أحيانًا أن تحرجهم . فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذى تدعون إليه ؟ وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن دراسات ومن فقه مقنن على الأصول الحديثة ! كأن الذى ينقص الناس فى هذا الزمان لإقامة شريعة الإسلام فى الأرض هو مجرد الأحكام الفقهية والبحوث الفقهية الإسلامية . وكأنما هم مستسلمون لحاكمية الله راضون بأن تحكمهم شريعته ، ولكنهم فقط لا يجدون من « المجتهدين » فقهًا مقننًا بالطريقة الحديثة !.. وهى سخرية هازلة يجب أن يرتفع عليها كل ذى قلب يحس لهذا الدين بحرمة !

إن الجاهلية لا تريد بهذا الإحراج إلا أن تجد لنفسها تعلة فى نبذ شريعة الله ، واستبقاء عبودية البشر للبشر.. وإلاَّ أن تصرف العصبة المسلمة عن منهجها الربانى ، فتجعلها تتجاوز مرحلة بناء العقيدة فى صورة حركية ، وأن تحول منهج أصحاب الدعوة الإسلامية عن طبيعته التى تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، وتتحدد ملامح النظام من خلال الممارسة ، وتسن فيها التشريعات فى مواجهة الحياة الإسلامية الواقعية بمشكلاتها الحقيقية .

ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة ! من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم ألا يستخفهم الذين لا يوقنون !

ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج ، وأن يستعلوا عليها ، وأن يرفضوا السخرية الهازلة فى ما يسمى « تطوير الفقه الإسلامى » فى مجتمع

لا يعلن خضوعه لشريعة الله ورفضه لكل شريعة سواها . من واجبهم أن يرفضوا هذه التلهية عن العمل الجاد .. التلهية باستنبات البذور فى الهواء .. وأن يرفضوا هذه الخدعة الخبيثة !

ومن واجبهم أن يتحركوا وفق منهج هذا الدين فى الحركة . فهذا من أسرار قوته . وهذا هو مصدر قوتهم كذلك .

إن « المنهج » فى الإسلام يساوى « الحقيقة » . ولا انفصام بينهما . وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام فى النهاية . والمناهج الغريبة يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية . ولكنها لا يمكن أن تحقق منهجنا . فالتزام المنهج ضرورى كالتزام العقيدة وكالتزام النظام فى كل حركة إسلامية ..

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ..

* * *

نَشأةُ المُجتمَع المسْلِم وَخصَائِصُه

إن الدعوة الإسلامية ـ على يد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام .. وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشرى كانت تستهدف أمرًا واحدًا : هو تعريف الناس بإلـههم الواحد وربهم الحق ،. وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق .. ولم يكن الناس ـ فيما عدا أفرادًا معدودة فى فترات قصيرة ـ ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ، إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة أخرى : إما فى صورة الاعتقاد والعبادة ، وإما فى صورة الحاكمية والاتباع ، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله ، الذى كانوا يعرفونه على يد كل رسول ، ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ، ويرتدُّون إلى الجاهلية التى أخرجهم منها ، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى . إما فى الاعتقاد والعبادة ، وإما فى الاتباع والحاكمية . وإما فيها جميعًا ..

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشرى . إنها تستهدف «الإسلام» .. إسلام العباد لرب العباد ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، بإخراجهم من سلطان العباد فى حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته

وحده فى كل شأن من شؤون الحياة .. وفى هذا جاء الإسلام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، كما جاء على أيدى الرسل الكرام قبله .. جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذى يحتوى الناس ، فيجب أن تكون السلطة التى تنظم حياتهم هى السلطة التى تنظم وجوده ، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذى يصرف الكون كله . بل الذى يصرف وجودهم هم أنفسهم فى غير الجانب الإرادى من حياتهم . فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله فى نشأتهم ونموهم ، وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم وموتهم ، كما هم محكومون بهذه القوانين فى اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها ، وهم لا يملكون تغيير سنة الله فى القوانين الكونية التى تحكم هذا الكون وتصرفه . ومن ثم ينبغى أن يثوبوا إلى الإسلام فى الجانب الإرادى من حياتهم ، فيجعلوا شريعة الله هى الحاكمة فى كل شأن من شؤون هذه الحياة ، تنسيقًا بين الجانب الإرادى فى حياتهم والجانب الفطرى ، وتنسيقًا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكونى[1] .

ولكن الجاهلية التى تقوم على حاكمية البشر للبشر ، والشذوذ بهذا عن الوجود الكونى ، والتصادم بين منهج الجانب الإرادى فى حياة الإنسان والجانب الفطرى .. هذه الجاهلية التى واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام لله وحده ، والتى واجهها رسول الله ـ صلى الله

(١) يراجع بتوسع فى هذه النقطة كتاب « مبادىء الإسلام » للسيد أبى الأعلى المودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان .

عليه وسلم ـ بدعوته .. هذه الجاهلية لم تكن متمثلة فى «نظرية» مجردة . بل ربما أحيانًا لم تكن لها «نظرية» على الإطلاق ! إنما كانت متمثلة دائمًا فى تجمع حركى . متمثلة فى مجتمع ، خاضع لقيادة هذا المجتمع وخاضع لتصوراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته . وه مجتمع عضوى بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولا والتعاون العضوى ، الذى يجعل هذا المجتمع يتحرك ـ بإرادة واعية أو غير واعية ـ للمحافظة على وجوده ، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التى تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان فى أية صورة من صور التهديد .

ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل فى «نظرية» مجردة ، ولكن تتمثل فى تجمع حركى على هذا النحو ، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس إلى الله مرة أخرى ، لا يجوز ـ ولا يجدى شيئًا ـ أن تتمثل فى «نظرية» مجردة . فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة فى تجمع حركى عضوى ، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب فى حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية فى طبيعته وفى منهجه وفى كلياته وجزئياته . بل لابد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل فى تجمع عضوى حركى أقوى فى قواعده النظرية والتنظيمية ، وفى روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلى القائم فعلاً .

والقاعدة النظرية التى يقوم عليها الإسلام ـ على مدار التاريخ البشرى ـ هى قاعدة : «شهادة أن لا إله إلا الله» أى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .. إفراده بها

اعتقادًا فى الضمير ، وعبادة فى الشعائر ، وشريعة فى واقع الحياة . فشهادة أن لا إله إلا الله ، لا توجد فعلاً ، ولا تعتبر موجودة شرعًا إلا فى هذه الصورة المتكاملة التى تعطيها وجودًا جديًا حقيقيًا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلمًا أو غير مسلم .

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية .. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، لا يقضون هم فى أى شأن من شؤونها ، ولا فى أى جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ، بل لا بد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه .. وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه ، وهو رسول الله . وهذا يتمثل فى شطر الشهادة الثانى من ركن الإسلام الأول : «شهادة أن محمدًا رسول الله» .

هذه هى القاعدة النظرية التى يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها .. وهى تنشىء منهجًا كاملاً للحياة حين تطبق فى شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية فى داخل دار الإسلام وخارجها ، فى علاقاته بالمجتمع المسلم وفى علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى[1] .

ولكن الإسلام ـ كما قلنا ـ لم يكن يملك أن يتمثل فى «نظرية» مجردة ، يعتنقها من يعتنقها اعتقادًا ويزاولها عبادة ، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفرادًا ضمن الكيان العضوى للتجمع الحركى الجاهلى القائم فعلاً . فإن وجودهم على هذا النحو ـ مهما كثر عددهم ـ لا يمكن أن يؤدى إلى «وجود فعلى» للإسلام ، لأن الأفراد «المسلمين نظريًا»

---

(١) راجع فصل «لا إله إلا الله منهج حياة» .

الداخلين فى التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى سيظلون مضطرين حتمًا للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية .. سيتحركون - طوعًا أو كرهًا ، بوعى أو بغير وعى - لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده ، وسيدافعون عن كيانه ، وسيدفعون العوامل التى تهدد وجوده وكيانه ، لأن الكائن العضوى يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا .. أى أن الأفراد « المسلمين نظريًا » سيظلون يقومون « فعلاً » بتقوية المجتمع الجاهلى الذى يعملون « نظريًا » لإزالته ، وسيظلون خلايا حية فى كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى ، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم فى اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلى لإقامة المجتمع الإسلامى !

ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أى العقيدة) فى تجمع عضوى حركى منذ اللحظة الأولى .. لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوى حركى آخر غير التجمع الجاهلى ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوى الحركى الجاهلى الذى يستهدف الإسلام إلغاءه ، وأن يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن بعده فى كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته - وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولاءه من التجمع الحركى الجاهلى - أى التجمع الذى جاء منه - ومن قيادة ذلك التجمع - فى أية صورة كانت ، سواء كانت فى صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم ، أو فى صورة قيادة

سياسية واجتماعية واقتصادية كالتى كانت لقريش - وأن يحصر ولاءه فى التجمع العضوى الحركى الإسلامى الجديد ، وفى قيادته المسلمة .

ولم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم فى الإسلام ، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا . لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية فى قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم ، لا يتمثلون فى تجمع عضوى متناسق متعاون ، له وجود ذاتى مستقل ، يعمل أعضاؤه عملاً عضويًا - كأعضاء الكائن الحى - على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وفى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التى تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلى ، تنظم حركتهم وتنسقها ، وتوجههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامى ، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلى .

وهكذا وجد الإسلام .. هكذا وجد متمثلاً فى قاعدة نظرية مجملة - ولكنها شاملة - يقوم عليها فى نفس اللحظة تجمع عضوى حركى ، مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجه لهذا المجتمع .. ولم يوجد قط فى صورة « نظرية » مجردة عن هذا الوجود الفعلى .. وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى . ولا سبيل لإعادة إنشائه فى ظل المجتمع الجاهلى فى أى زمان وفى أى مكان بغير الفقه الضرورى لطبيعة نشأته العضوية الحركية .

وبعد : فإن الإسلام - وهو يبنى الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج ، ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوى الحركى ،

ويجعل آصرة هذا التجمع هى العقيدة ـ إنما كان يستهدف إبراز «إنسانية الإنسان» وتقويتها وتمكينها ، وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى فى الكائن الإنسانى ، وكان يمضى فى هذا على منهجه المطرد فى كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه..

إن الكائن الإنسانى يشترك مع الكائنات الحيوانية ـ بل الكائنات المادية ـ فى صفات توهم أصحاب «الجهالة العلمية !» مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ، ومرة بأنه مادة كسائر المواد ! ولكن الإنسان مع اشتراكه فى هذه «الصفات» مع الحيوان ومع المادة له «خصائص» تميزه وتفرده ، وتجعل منه كائنًا فريدًا ، كما اضطر أصحاب «الجهالة العلمية !» أخيرًا أن يعترفوا والحقائق الواقعية تلوى أعناقهم ليًّا ، فيضطرون لهذا الاعتراف فى غير إخلاص ولا صراحة[1] !

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامى فى هذه القضية ، ولإقامة التجمع الإسلامى على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة الحدود الإقليمية السخيفة ! ولإبراز «خصائص الإنسان» فى هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان . كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعًا مفتوحًا لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وإن صبَّت فى بوتقة المجتمع الإسلامى خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت فى هذه البوتقة وتمازجت ،

---

(١) فى مقدمة هؤلاء جوليان هاكسلى من أصحاب «الداروينية الحديثة» .

وأنشأت مركبًا عضويًا فائقًا فى فترة تعد نسبيًا قصيرة ، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوى خلاصة الطاقة البشرية فى زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال فى ذلك الزمان .

لقد اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق : العربى والفارسى والشامى والمصرى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والأفريقى .. إلى آخر الأقوام والأجناس . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يومًا ما « عربية » إنما كانت دائمًا « إسلامية » ، ولم تكن يومًا « قومية » إنما كانت دائمًا « عقيدية » .

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة . فبذلوا جميعهم أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم . وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعًا على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق . وهذا ما لم يجتمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ !..

لقد كان أشهر تجمع بشرى فى التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد جمعت بالفعل أجناسًا متعددة ، ولغات متعددة ، وألوانًا متعددة . وأمزجة متعددة ولكن هذا كله لم يقم على « آصرة إنسانية » ولم يتمثل فى قيمة عليا كالعقيدة . لقد كان هناك تجمع طبقى

على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد فى الإمبراطورية كلها من ناحية . وتجمع عنصرى على أساس سيادة الجنس الرومانى - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامى . ولم يؤت الثمار التى آتاها التجمع الإسلامى .

كذلك قامت فى التاريخ الحديث تجمعات أخرى .. تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً .. ولكنه كان كالتجمع الرومانى الذى هو وريثه ! تجمعًا قوميًا استغلاليًا ، يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التى تضمها الإمبراطورية .. ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها : الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية فى وقت ما . والإمبراطورية الفرنسية .. كلها فى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعًا من نوع آخر . يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة «إنسانية» عامة ، إنما أقامته على القاعدة «الطبقية» . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الرومانى القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة «الأشراف» وذلك تجمع على قاعدة طبقة «الصعاليك» (البروليتريا) ، والعاطفة التى تسوده هى عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما فى الكائن الإنسانى .. فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن «المطالب الأساسية» للإنسان هى «الطعام والمسكن والجنس» - وهى مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! ! !

لقد تفرد الإسلام بمنهجه الربانى فى إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها فى بناء المجتمع الإنسانى . وما يزال متفردًا .. والذين يعدلون عنه إلى أى منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة .. إلى آخر هذا النتن السخيف هم أعداء الإنسان حقًا ! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد فى هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ، ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها فى امتزاج وتناسق .. وهم الذين يقول الله سبحانه فى أمثالهم :

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوًا » .

[الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٦]

وصدق الله العظيم . .

الجِهَادُ فى سَبِيْلِ اللهِ

لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام فى « زاد المعاد » فى الفصل الذى عقده باسم : « فصل فى ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عزَّ وجلَّ » : (أول ما أوحى به تبارك وتعالى ، أن يقرأ باسم ربه الذى خلق . وذلك أولى نبوته ، فأمره أن يقرأ فى نفسه « فأنذر » فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ : « يا أيها المدثر » . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية . ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له فى الهجرة وأذن له فى القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله . ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد . فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره

فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان . والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم .. وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام : قسمًا أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسمًا لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسمًا لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .. وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين) ..

* * *

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد فى الإسلام تتجلى سمات

أصيلة وعميقة فى المنهج الحركى لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً . ولكننا لا نملك هنا إلا أن نشير إليها إشارات مجملة :

السمة الأولى : هى الواقعية الجدية فى منهج هذا الدين .. فهو حركة تواجه واقعًا بشريًا .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعى .. إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ، تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات . وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التى تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبّدهم لغير ربهم الجليل .. إنها حركة لا تكتفى بالبيان فى وجه السلطان المادى ، كما إنها لا تستخدم القهر المادى لضمائر الأفراد .. وهذه كتلك سواء فى منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجىء .

والسمة الثانية فى منهج هذا الدين : هى الواقعية الحركية .. فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها .. فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين فى الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه . ولا يدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها .. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطًا شديدًا ويلبسون منهج هذا الدين لبسًا

مضللاً ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصًا نهائيًا ، يمثل القواعد النهائية فى هذا الدين ، ويقولون ـ وهم مهزومون روحيًا وعقليًا تحت ضغط الواقع اليائس لذرارى المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـ : أن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعًا ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة .. بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة . تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها .

والسمة الثالثة : هى أن هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن أهدافه المرسومة . فهو ـ منذ اليوم الأول ـ سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين ، أو يخاطب قريشًا . أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين ، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة . ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد هو إخلاص العبودية لله . والخروج من العبودية للعباد . لا مساومة فى هذه القاعدة ولا لين .. ثم يمضى إلى تحقيق هذا الهدف الواحد فى خطة مرسومة ، ذات مراحل محددة . لكل مرحلة وسائلها المتجددة . على نحو ما أسلفنا فى الفقرة السابقة .

والسمة الرابعة : هى ذلك الضبط التشريعى للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى ـ على النحو الملحوظ فى ذلك التلخيص

الجيد الذى نقلناه عن «زاد المعاد» ـ وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمى الذى على البشرية كلها أن تفىء إليه ، أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأى حائل من نظام سياسى ، أو قوة مادية ، وأن تخلى بينه وبين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته ، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه ! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه !

* * *

والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن «الجهاد فى الإسلام» ليدفعوا عن الإسلام هذا «الاتهام» يخلطون بين منهج هذا الدين فى النص على استنكار الإكراه على العقيدة ، وبين منهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه ، والتى تعبِّد الناس للناس ، وتمنعهم من العبودية لله .. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما .. ومن أجل هذا التخليط ، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة ! ـ يحاولون أن يحصروا الجهاد فى الإسلام فيما يسمونه اليوم : «الحرب الدفاعية» .. والجهاد فى الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك .. إن بواعث الجهاد فى الإسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة «الإسلام» ذاته ودوره فى هذه الأرض ، وأهدافه العليا التى قررها الله ، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات .

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير «الإنسان» فى «الأرض» من

العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه أيضًا وهى من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين .. "! إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور .. أو بتعبير آخر مرادف : الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور .. ذلك أن الحكم الذى مردّ الأمر فيه إلى البشر . ومصدر السلطات فيه هم البشر . هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض أربابًا من دون الله . إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله ، وطرد المغتصبين له ، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم ، فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد .. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض ، أو بالتعبير القرآنى الكريم :

« وهو الذى فى السماء إلٰهٌ وفى الأرض إلٰهٌ » .

[الزخرف : ٨٤]

« إن الحكم إلا لله .. أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه .. ذلك الدين القيم .. »

[يوسف : ٤٠]

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .. ألاَّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنَّا مسلمون .. »

[آل عمران : ٦٤]

ومملكة الله فى الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الأمر فى سلطان الكنيسة . ولا رجال ينطقون باسم الآلهة . كما كان الحال فيما يعرف باسم « الثيوقراطية » أو الحكم الإلهى المقدس ! ! ـ ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمة . وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة .

وقيام مملكة الله فى الأرض ، وإزالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده .. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان ، لأن المتسلطين على رقاب العباد ، والمغتصبين لسلطان الله فى الأرض ، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين الله فى الأرض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال !

إن هذا الإعلان العام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل سلطان غير سلطان الله ، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن إعلانًا نظريًا فلسفيًا سلبيًا .. إنما كان إعلانًا حركيًا واقعيًا إيجابيًا .. إعلانًا يراد له التحقيق العملى فى صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل « الحركة » إلى جانب شكل « البيان » .. ذلك ليواجه « الواقع » البشرى بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه .

والواقع الإنسانى ، أمس واليوم وغدًا ، يواجه هذا الدين ـ بوصفه إعلانًا عامًا لتحرير «الإنسان» فى «الأرض» من كل سلطان غير سلطان الله ـ بعقبات اعتقادية تصورية ، وعقبات مادية واقعية .. وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد .

وإذا كان «البيان» يواجه العقائد والتصورات ، فإن «الحركة» تواجه العقبات المادية الأخرى ـ وفى مقدمتها السلطان السياسى القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة ـ .. وهما معًا ـ البيان والحركة ـ يواجهان «الواقع البشرى» بجملته . بوسائل مكافئة لكل مكوناته .. وهما معًا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان فى الأرض .. «الإنسان» كله فى «الأرض» كلها .. وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى !

إن هذا الدين ليس إعلانًا لتحرير الإنسان العربى ! وليس رسالة خاصة بالعرب !.. إن موضوعه هو «الإنسان» .. نوع «الإنسان» .. ومجاله هو «الأرض» .. كل «الأرض» . إن الله ـ سبحانه ـ ليس ربًا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم .. إن الله هو «رب العالمين» .. وهذا الدين يريد أن يرد «العالمين» إلى ربهم ؛ وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى ـ فى نظر الإسلام ـ هى خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر .. وهذه هى «العبادة» التى يقرر أنها لا تكون إلا لله . وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه فى هذا الدين . ولقد نص رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ على أن «الاتّباع» فى الشريعة والحكم هو «العبادة» التى صار بها اليهود والنصارى «مشركين» مخالفين لما أمروا به من «عبادة» الله وحده ..

أخرج الترمذى ـ بإسناده ـ عن عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فر إلى الشام، وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أخته فأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته فى الإسلام، وفى القدوم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى عنقه ـ أى «عدى» صليب من فضة وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ هذه الآية .. «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله»[1] .. قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم. فقال «بلى! إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام. فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم».

وتفسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقول الله سبحانه. نص قاطع على أن الاتّباع فى الشريعة والحكم هو العبادة التى تخرج من الدين، وأنها هى اتخاذ بعض الناس أربابًا لبعض .. الأمر الذى جاء هذا الدين ليلغيه، ويعلن تحرير «الإنسان»، فى «الأرض» من العبودية لغير الله ..

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق فى «الأرض» لإزالة «الواقع»

---

(١) التوبة : ٣١

المخالف لذلك الإعلان العام .. بالبيان وبالحركة مجتمعين .. وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التى تعبِّد الناس لغير الله .. ـ أى تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه ـ والتى تحول بينهم وبين الاستماع إلى « البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكى يقيم نظامًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلى ـ بعد إزالة القوة المسيطرة ـ سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية ، أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته .. ولكن الإسلام ليس مجرد « عقيدة » . إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التى تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان .. ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارًا ـ بالفعل ـ فى اختيار العقيدة التى يريدونها بمحض اختيارهم ـ بعد رفع الضغط السياسى عنهم ، وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم ـ ولكن هذه التجربة ليس معناها أن يجعلوا إلههم هو أهم ، أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدًا للعباد ! وأن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله !.. إن النظام الذى يحكم البشر فى الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده . وذلك بتلقى الشرائع منه وحده . ثم ليعتنق كل فرد ـ فى ظل هذا النظام العام ـ ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله . أى تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله .. إن مدلول « الدين » أشمل من مدلول « العقيدة » إن الدين هو المنهج والنظام الذى يحكم الحياة ، وهو فى الإسلام يعتمد على

العقيدة ، ولكنه فى عمومه أشمل من العقيدة .. وفى الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذى يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام .

والذى يدرك طبيعة هذا الدين ـ على النحو المتقدم ـ يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى للإسلام فى صورة الجهاد بالسيف ـ إلى جانب الجهاد بالبيان ـ ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية ـ بالمعنى الضيق الذى يفهم اليوم من اصطلاح «الحرب الدفاعية» كما يريد المهزومون ـ أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر ـ أن يصوروا حركة الجهاد فى الإسلام ـ إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير «الإنسان» فى «الأرض» .. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشرى ، وفى مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة .

وإذا لم يكن بد أن نسمى حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة «دفاع» ، ونعتبره «دفاعًا عن الإنسان» ذاته . ضد جميع العوامل التى تقيد حريته وتعوق تحرره .. هذه العوامل التى تتمثل فى المعتقدات والتصورات ، كما تتمثل فى الأنظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التى كانت سائدة فى الأرض كلها يوم جاء الإسلام ، والتى ما تزال أشكال منها سائدة فى الجاهلية الحاضرة فى هذا الزمان !

وبهذا التوسع فى مفهوم كلمة «الدفاع» نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامى فى «الأرض» بالجهاد ، ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها ، وهى أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية

للعباد ، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين . وتحطيم مملكة الهوى البشرى فى الأرض ، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية فى عالم الإنسان ..

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامى بالمعنى الضيق للمفهوم العصرى للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامى كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على « الوطن الإسلامى » – وهو فى عرف بعضهم جزيرة العرب – فهى محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين . ولطبيعة الدور الذى جاء ليقوم به فى الأرض . كما أنها تشى بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الإسلامى !

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان – رضى الله عنهم – قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامى إلى أطراف الأرض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من أنظمة الدولة السياسية ، وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية . والتى تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟!

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير « الإنسان » .. نوع الإنسان .. فى « الأرض » .. كل الأرض .. ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان !.. إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد ؛ تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات .. فهنا « لا إكراه فى الدين » .. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة ، للتمكن من مخاطبة

قلب الإنسان وعقله ، وهو طليق من هذه الأغلال !

إن الجهاد ضرورة للدعوة ، إذا كانت أهدافها هى إعلان تحرير الإنسان إعلانًا جادًا يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فى كل جوانبه ، ولا يكتفى بالبيان الفلسفى النظرى ! سواء كان الوطن الإسلامى ـ وبالتعبير الإسلامى الصحيح : دار الإسلام ـ آمنًا أم مهددًا من جيرانه . فالإسلام حين يسعى إلى السلم ، لا يقصد تلك السلم الرخيصة ، وهى مجرد أن يؤمن الرقعة الخاصة التى يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد السلم التى يكون الدين فيها كله لله ، أى تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ، والتى لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله . والعبرة بنهاية المراحل التى وصلت إليها الحركة الجهادية فى الإسلام ـ بأمر من الله ـ لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأواسطها .. ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم : « فاستقر أمر الكفار معه ـ بعد نزول براءة ـ على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام .. فصاروا معه قسمين : محاربين . وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه .. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب » ..

وهذه هى المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه ، لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وأمام هجوم المستشرقين الماكر !

ولقد كف الله المسلمين عن القتال فى مكة ، وفى أول العهد بالهجرة

إلى المدينة .. وقيل للمسلمين : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »[1] .. ثم أذن لهم فيه ، فقيل لهم : « أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبِيَعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »[2] .. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »[3] .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »[4] .. وقيل لهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وَهُمْ صاغرون »[5] . فكان القتال ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ « محرمًا ، ثم مأذونًا به ، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورًا به لجميع المشركين » ..

إن جدِّية النصوص القرآنية الواردة فى الجهاد ، وجدية الأحاديث النبوية التى تحض عليه ، وجدية الوقائع الجهادية فى صدر الإسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه .. إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول

---

(١) النساء : ٧٧

(٢) الحج : ٣٩ ـ ٤١

(٣) البقرة : ١٩٠

(٤) التوبة : ٣٦

(٥) التوبة : ٢٩

فى النفس ذلك التفسير الذى يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الإسلامى !

ومن ذا الذى يسمع قول الله سبحانه فى هذا الشأن وقول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتابع وقائع الجهاد الإسلامى ، ثم يظنه شأنًا عارضًا مقيدًا بملابسات تذهب وتجىء ، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟!

لقد بين الله للمؤمنين فى أول ما نزل من الآيات التى أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل فى طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن الأرض :

«أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِمُوا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبِيَعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا**» ..

[الحج : ٣٩ ـ ٤٠]

وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل فى هذه الأرض . وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، رماه المغتصبون لسلطان الله فى الأرض ولم يسالموه قط ، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن «الإنسان» فى «الأرض» ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يقف معها الانطلاق الجهادى التحريرى حتى يكون الدين كله لله .

إن الكف عن القتال فى مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة فى خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة . والذى بعث الجماعة المسلمة فى المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة .. هذا هدف أولى لا بد منه ، ولكنه ليس الهدف الأخير .. إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ، ويؤمن قاعدة الانطلاق .. الانطلاق لتحرير « الإنسان » ، ولإزالة العقبات التى تمنع « الإنسان » ذاته من الانطلاق !

وكف أيدى المسلمين فى مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفولاً للدعوة فى مكة حرية البلاغ .. كان صاحبها - صلى الله عليه وسلم - يملك بحماية سيوف بنى هاشم ، أن يصدع بالدعوة ، ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ، ويواجه بها الأفراد .. لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة ، أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة - فى هذه المرحلة - لاستخدام القوة ، وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة فى هذه المرحلة . وقد لخصتها فى ظلال القرآن عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ... » (الآية ٧٧ من سورة النساء) . ولا بأس فى إثبات بعض هذا التلخيص هنا :

« ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، فى بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربى على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة فى نظره ودافع الحركة فى حياته . وتربيته

كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هى طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج ، فيتم الاعتدال فى طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعًا منظمًا له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به - مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى ، لإنشاء «المجتمع المسلم» الخاضع لقيادة موجهة ، المترقى المتحضر ، غير الهمجى أو القبلى !

«وربما كان ذلك أيضًا . لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثرًا وأنفذ . فى مثل بيئة قريش . ذات العنجهية والشرف . والتى قد يدفعها القتال معها - فى مثل هذه المرحلة - إلى زيادة العناد ، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التى أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، أعوامًا طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك أبدًا ، ويتحول الإسلام من دعوة ودين إلى ثارات وذحول تنسى معها وجهته الأساسية . وهو فى مبدئه ، فلا تذكر أبدًا !

«وربما كان ذلك أيضًا ، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم ، إنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد يعذبونه ويفتنونه «ويؤدبونه !» ومعنى الإذن بالقتال - فى مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فى

الموسم . فى أواسط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد . والمولى بقتل الولى .. فى كل بيت وفى كل محلة ؟

« وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته .. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟!

« وربما كان ذلك أيضًا ، لأن النخوة العربية . فى بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم الذى يحتمل الأذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان واقعًا على كرام الناس فيهم .. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ فى هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى فى ذلك عارًا على العرب ! وعرض عليه جواره وحمايته .. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم فى شعب أبى طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما فى بيئة أخرى من بيئات « الحضارة » القديمة التى مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى !

« وربما كان ذلك ، أيضًا ، لقلة عدد المسلمين حينذاك . وانحصارهم فى مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففى مثل

هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك ، وتنمحى الجماعة المسلمة . ولم يقم فى الأرض للإسلام نظام . ولا وجد له كيان واقعى . وهو دين جاء ليكون منهاج حياة ، وليكون نظامًا واقعيًا عمليًا للحياة .

« ... الخ » ...

فأما فى المدينة ـ فى أول العهد بالهجرة ـ فقد كانت المعاهدة التى عقدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع اليهود من أهلها ومن بقى على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك ..

أولاً : لأن هناك مجالاً للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ، وبقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحًا ولا يثير حربًا ، ولا ينشىء علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان واضحًا أن السلطة الحقيقية فى المدينة فى يد القيادة المسلمة . فالمجال أمام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانيًا : إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يريد التفرغ ، فى هذه المرحلة ـ لقريش ، التى تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة فى وجه القبائل الأخرى الواقعة فى حالة انتظار لما ينتهى إليه الأمر بين

قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإرسال «السرايا» وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب فى شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهرًا . ثم على رأس ستة عشر شهرًا . ثم كانت سرية عبد الله بن جحش فى رجب على رأس سبعة عشر شهرًا . وهى أول غزاة وقع فيها قتل وقتال ، وكان ذلك فى الشهر الحرّام . والتى نزلت فيها آيات البقرة : «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل : قتال فيه كبير ؛ وَصَدٌّ عن سبيل الله وَكُفْرٌ به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ..»

[البقرة : ٢١٧]

ثم كانت غزوة بدر الكبرى فى رمضان من هذه السنة .. وهى التى نزلت فيها سورة الأنفال .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالاً للقول بأن «الدفاع» بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية ، كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر . وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر !

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامى ، إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية . فى وقت لم يعد للمسلمين شوكة . بل لم يعد للمسلمين إسلام ! ـ إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير «الإنسان» فى «الأرض»

من كل سلطان إلا من سلطان الله ، ليكون الدين كله لله ــ فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد فى الإسلام !

والمد الإسلامى ليس فى حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التى حملتها النصوص القرآنية :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفًا » ..

[النساء : ٧٤ ـ ٧٦]

« قل للذين كفروا : إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سلف . وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم . نعم المولى ونعم النصير » ..

[الأنفال : ٣٨ ـ ٤٠]

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وَهُمْ صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول

الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا ، لا إله إلا هو . سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . ويأبى الله إلا أن يتم نوره . ولو كره الكافرون» ...
[التوبة : ٢٩ – ٣٢]

إنها مبررات تقرير ألوهية الله فى الأرض ، وتحقيق منهجه فى حياة الناس . ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين ، وتحطيم سلطان البشر الذى يتعبد الناس ، والناس عبيد لله وحده ، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهذا يكفى .. مع تقرير مبدأ : «لا إكراه فى الدين» .. أى لا إكراه على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ، والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله ، أو أن الدين كله لله ، بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحرير العام للإنسان فى الأرض . بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك .. وهذه وحدها تكفى .. لقد كانت هذه المبررات ماثلة فى نفوس الغزاة من المسلمين ، فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين ! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعى بن عامر . وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة جميعًا لرستم قائد جيش الفرس فى القادسية ، وهو يسألهم واحدًا بعد واحد فى ثلاثة أيام متوالية ، قبل المعركة : ما الذى جاء

بكم ؟ فيكون الجواب : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر» .

إن هناك مبررًا ذاتيًا فى طبيعة هذا الدين ذاته ، وفى إعلانه العام ، وفى منهجه الواقعى لمقابلة الواقع البشرى بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، فى مراحل محددة ، بوسائل متجددة .. وهذا المبرر الذاتى قائم ابتداء ــ ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها ــ إنه مبرر فى طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية فى المجتمعات البشرية .. لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة ، وموقوتة !

وإنه ليكفى لأن يخرج المسلم مجاهدًا بنفسه وماله .. «فى سبيل الله» .. فى سبيل هذه القيم التى لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتى ، ولا يخرجه لها مغنم ذاتى ..

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد فى المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر فى نفسه مع الشيطان .. مع هواه وشهواته .. مع مطامعه ورغباته .. مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه .. مع كل شارة غير شارة الإسلام .. ومع كل دافع إلا العبودية لله . وتحقيق سلطانه فى الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله ..

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامى فى حماية «الوطن الإسلامى» يغضون من شأن «المنهج» ويعتبرونه أقل من «الموطن» وهذه

ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات . إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامى ، فالعقيدة والمنهج الذى تتمثل فيه والمجتمع الذى يسود فيه هذا المنهج هى الاعتبارات الوحيدة فى الحس الإسلامى . أما الأرض ـ بذاتها ـ فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للأرض فى التصور الإسلامى إنما هى مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها ، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و « دار الإسلام » ونقطة الانطلاق لتحرير « الإنسان » .

وحقيقة إن حماية « دار الإسلام » حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذى يسود فيه المنهج . ولكنها هى ليست الهدف النهائى . وليست حمايتها هى الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامى ، إنما حمايتها هى الوسيلة لقيام مملكة الله فيها ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الإنسانى بجملته . فالنوع الإنسانى هو موضوع هذا الدين والأرض هى مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمذهب الإلـٰهى تقوم فى وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ، ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة .. وهذه كلها هى التى ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة ، كى يخلو له وجه الأفراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الأغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار .

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ « الجهاد » وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله فى ميزان القوى العالمية ، فنروح نبحث للجهاد الإسلامى عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا

الدين ، فى ملابسات دفاعية وقتية . كان الجهاد سينطلق فى طريقه سواء وجدت أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخى ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية فى طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعى ، وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقًا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له ، لأن مجرد وجوده فى صورة إعلان عام لربوبية الله للعالمين . وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا الوجود فى تجمع تنظيمى حركى تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية ، لأن الحاكمية فيه لله وحده .. إن مجرد وجود هذا الدين فى هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله - القائمة على قاعدة العبودية للعباد - أن تحاول سحقه ، دفاعًا عن وجودها ذاته ، ولابد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه ..

هذه ملابسة لا بد منها ، تولد مع ميلاد الإسلام ذاته ، وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضًا ، ولا خيار له فى خوضها ، وهذا صراع طبيعى بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً ...

هذا كله حق .. ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده ، ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة غليه فرضًا ..

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة .. إن من طبيعة الوجود الإسلامى ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء . لإنقاذ

« الإنسان » فى « الأرض » من العبودية لغير الله ، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ، ولا أن ينزوى داخل حدود عنصرية ، تاركًا « الإنسان » .. نوع الإنسان .. فى « الأرض » .. كل الأرض .. للشر والفساد والعبودية لغير الله .

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجىء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام ، إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية . ورضى أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريرى العام ! ولكن الإسلام لا يهادنها ، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه فى صورة أداء الجزية ، ضمانًا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته ، بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله فى الناس أجمعين !

وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابعًا داخل حدود إقليمية أو عنصرية ، لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه فى هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية فى الانطلاق !

إن مبررات الانطلاق الإسلامى تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية ، وليس منهج إنسان ، ولا مذهب شيعة من الناس ، ولا نظام جنس من الأجناس !... ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر فى حسنا هذه الحقيقة الهائلة .. حين ننسى أن القضية هى قضية ألوهية الله وعبودية العباد ..

إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامى !

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين تصور أن الإسلام كان مضطرًا لخوض معركة لا اختيار له فيها ، بحكم وجوده الذاتى ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التى لا بد أن تهاجمه ، وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء ، فيدخل فى هذه المعركة ..

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة ، فهو فى كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتمًا . ولكنها فى نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة ، تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييرًا كبيرًا .. خطيرًا .

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجًا إلـهيًا ، جاء ليقرر ألوهية الله فى الأرض ، وعبودية البشر جميعًا لإله واحد ، ويصب هذا التقرير فى قالب واقعى ، هو المجتمع الإنسانى الذى يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، فلا تحكمهم إلا شريعة الله ، التى يتمثل فيها سلطان الله ، أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته .. فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه . ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسى . أو أوضاع الناس الاجتماعية .. إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو . واعتباره نظامًا محليًا فى وطن بعينه فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه فى داخل حدوده الإقليمية !

هذا تصور .. وذاك تصور .. ولو أن الإسلام فى كلتا الحالتين سيجاهد .. ولكن التصور الكلى لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه .

يختلف اختلافًا بعيدًا ، يدخل فى صميم الاعتقاد كما يدخل فى صميم الخطة والاتجاه .

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء . فالإسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن . ولكنه منهج إله . ونظام عالم .. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التى تغل من حرية «الإنسان» فى الاختيار . وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته ، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة ، المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الإسلام أن يُخرج «الناس» من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .. ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين .. وعبادة الله وحده لا تتحقق – فى التصور الإسلامى وفى الواقع العملى – إلا فى ظل النظام الإسلامى . فهو وحده النظام الذى يشرع الله فيه للعباد كلهم ، حاكمهم ومحكومهم ، أسودهم وأبيضهم ، قاصيهم ودانيهم ، فقيرهم وغنيهم ، تشريعًا واحدًا يخضع له الجميع على السواء .. أما فى سائر الأنظمة ، فيعبد الناس العباد ، لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية ، فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه . فقد ادّعى الألوهية اختصاصًا وعملاً ، سواء ادَّعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء . وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية ، سواء سماها باسمها أم لم يسمها !

والإسلام ليس مجرد عقيدة ، حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة

البيان . إنما هو منهج يتمثل فى تجمع تنظيمى حركي يزحف لتحرير كل الناس ، والتجمعات الأخرى لا تمكِّنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو ، ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام . وهذا ـ كما قلنا من قبل ـ معنى أن يكون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته . كما هو الشأن فى سائر الأنظمة التى تقوم على عبودية العباد للعباد !

إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجوم الاستشراقى الماكر ، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة ، لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيدًا أن هذه ليست هى الحقيقة ، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامى بهذه الطريقة .. ومن ثم يقوم المنافحون ـ المهزومون ـ عن سمعة الإسلام ، بنفى هذا الاتهام ، فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته . وحقه فى « تحرير الإنسان » ابتداء .

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين ـ المهزومين ـ ذلك التصور الغربى لطبيعة « الدين » .. وإنه مجرد « عقيدة » فى الضمير ، لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة . ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهادًا لفرض العقيدة على الضمير !

ولكن الأمر ليس كذلك فى الإسلام ، فالإسلام منهج الله للحياة البشرية ، وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية ـ متمثلة فى الحاكمية ـ وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهاد له

جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام . أما العقيدة فأمر موكول إلى حرية الاقتناع ، فى ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات .. ومن ثم يختلف الأمر من أساسه . وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الإسلامى ، الذى يتمثل فيه المنهج الإلهى ، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام ، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان . فإذا كف الله أيدى الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد ، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة .. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة ، فى المراحل التاريخية المتجددة ، ولا نخلط بين دلالتها المرحلية ، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل .

* * *

لا إله إلا الله منهج حياة

العبودية لله وحده هى شطر الركن الأول فى العقيدة الإسلامية المتمثل فى شهادة : أن لا إله إلا الله . والتلقى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كيفية هذه العبودية ـ هو شطرها الثانى ، المتمثل فى شهادة أن محمدًا رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذى تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان ، وأركان الإسلام ، إنما هو مقتضى لها . فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية ... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده . كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلَّغه لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذى تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلمًا .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية

إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية عنها :

«إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم » ...

[يوسف : ٤٠]

«من يطع الرسول فقد أطاع الله » ..

[النساء : ٨٠]

* * *

هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا فى تحديد كلمة الفصل فى قضايا أساسية فى حقيقة هذا الدين . وفى حركته الواقعية كذلك :

إنه يفيدنا أولاً فى تحديد «طبيعة المجتمع المسلم» .

ويفيدنا ثانيًا فى تحديد «منهج نشأة المجتمع المسلم» .

ويفيدنا ثالثًا فى تحديد «منهج الإسلام فى مواجهة المجتمعات الجاهلية» .

ويفيدنا رابعًا فى تحديد «منهج الإسلام فى مواجهة واقع الحياة البشرية» .

وهى قضايا أساسية بالغة الخطورة فى منهج الحركة الإسلامية قديمًا وحديثًا .

* * *

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هى أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده فى أمره كله .. هذه العبودية التى تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله . وأن محمدًا رسول الله .

وتتمثل هذه العبودية فى التصور الاعتقادى ، كما تتمثل فى الشعائر التعبدية ، كما تتمثل فى الشرائع القانونية سواء .

فليس عبدًا لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه :

« وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين ، إنما هو إلٰه واحد فإياى فارهبون . وله ما فى السماوات والأرض وله الدين واصبًا . أفغير الله تتقون ؟ » ...

[النحل : ٥١ ـ ٥٢]

ليس عبدًا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله ـ معه أو من دونه :

« قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

[الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣]

وليس عبدًا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ، عن الطريق الذى بَلَّغَنَا الله به ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ »

[الشورى : ٢١]

«وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا»
[الحشر : ٧]

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذى تتمثل العبودية لله وحده فى معتقدات أفراده وتصوراتهم ، كما تتمثل فى شعائرهم وعباداتهم ، كما تتمثل فى نظامهم الجماعى وتشريعاتهم .. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود . لتخلف ركنه الأول . وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

ولقد قلنا : إن العبودية لله تتمثل فى «التصور الاعتقادى» .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادى الإسلامى .. إنه التصور الذى ينشأ فى الإدراك البشرى من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الربانى . والذى يتكيف به الإنسان فى إدراكه لحقيقة ربه . ولحقيقة الكون الذى يعيش فيه ــ غيبه وشهوده ــ ولحقيقة الحياة التى ينتسب إليها ــ غيبها وشهودها ــ ولحقيقة نفسه .. أى لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعًا . تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده ، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها ، ومع أفراد النوع البشرى وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله ــ كما بَلَّغَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ تحقيقًا لعبوديته لله وحده فى هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

* * *

فإذا تقرر أن هذا هو «المجتمع المسلم» ، فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟

إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله .. لا تدين بالعبودية لغير الله فى الاعتقاد والتصور ، ولا تدين بالعبودية لغير الله فى العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية لغير الله فى النظام والشرائع .. ثم تأخذ بالفعل فى تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة .. تنقى ضمائرها من الاعتقاد فى ألوهية أحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ وتنقى شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله ـ معه أو دونه ـ وتنقى شرائعها من التلقى عن أحد غير الله ـ معه أو من دونه .

عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ تكون هذه الجماعة مسلمة ، ويكون هذا المجتمع الذى أقامته مسلمًا كذلك .. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله ـ على النحو الذى تقدم ـ فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلمًا .. ذلك أن القاعدة الأولى التى يقوم عليها الإسلام ، والتى يقوم عليها المجتمع المسلم ـ هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ـ لم تقم بشطريها ..

وإذن فإنه قبل التفكير فى إقامة نظام اجتماعى إسلامى . وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام .. ينبغى أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله ـ فى أية صورة من صورها التى أسلفنا ـ وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله فى جماعة مسلمة .. وهذه الجماعة التى خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله . اعتقادًا وعبادة وشريعة . هى التى ينشأ منها المجتمع المسلم . وينضم إليها من يريد أن يعيش فى هذا المجتمع بعقيدته وعبادته

وشريعته التى تتمثل فيها العبودية لله وحده .. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التى أقامت المجتمع المسلم الأول .. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة ، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله ـ معه أو من دونه ـ إلى العبودية لله وحده بلا شريك ، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية .. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد ، مشتق من المجتمع الجاهلى القديم ، ومواجه له بعقيدة جديدة ، ونظام للحياة جديد ، يقوم على أساس هذه العقيدة ، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريه .. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلى القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامى الجديد وقد لا ينضم ، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه . وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلى حربًا لا هوادة فيها . سواء على طلائع هذا المجتمع فى مرحلة نشوئه ـ وهو أفراد أو مجموعات ـ أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً ـ وهو ما حدث فى تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام ، إلى محمد عليه الصلاة والسلام . بغير استثناء .

وطبيعى أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلى القديم ، قوة

الاعتقاد والتصور ، وقوة الخلق والبناء النفسى ، وقوة التنظيم والبناء الجماعى ، وسائر أنواع القوة التى يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلى ويتغلب عليه ، أو على الأقل يصمد له !

* * *

ولكن ما هو « المجتمع الجاهلى » ؟ وما هو منهج الإسلام فى مواجهته ؟

إن المجتمع الجاهلى هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ! وإذا أردنا التحديد الموضوعى قلنا : إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية فى التصور الاعتقادى ، وفى الشعائر التعبدية ، وفى الشرائع القانونية ..

وبهذا التعريف الموضوعى تدخل فى إطار « المجتمع الجاهلى » جميع المجتمعات القائمة اليوم فى الأرض فعلاً ! !

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية .. أولاً : بإلحادها فى الله ـ سبحانه ـ وبإنكار وجوده أصلاً ، ورجع الفاعلية فى هذا الوجود إلى « المادة » أو « الطبيعة » ، ورجع الفاعلية فى حياة الإنسان وتاريخه إلى « الاقتصاد » أو « أدوات الإنتاج » ، ثانيًا : بإقامة نظام العبودية فيه للحزب ـ على فرض أن القيادة الجماعية فى هذا النظام حقيقة واقعة ! ـ لا لله سبحانه ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص « الإنسان » وذلك باعتبار أن « المطالب الأساسية » له هى فقط مطالب الحيوان ، وهى : الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس !

وحرمانه من حاجات روحه «الإنسانى» المتميز عن الحيوان ، وفى أولها : العقيدة فى الله ، وحرية اختيارها ، وحرية التعبير عنها ، وكذلك حرية التعبير عن «فرديته» وهى من أخص خصائص «إنسانيته» . هذه الفردية التى تتجلى فى الملكية الفردية . وفى اختيار نوع العمل والتخصص ، وفى التعبير الفنى عن «الذات» إلى آخر ما يميز «الإنسان» عن «الحيوان» أو عن «الآلة» إذ أن التصور الشيوعى والنظام الشيوعى سواء ، كثيرًا ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة !

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية ــ وهى ما تزال قائمة فى الهند واليابان والفليبين وأفريقية ــ تدخل فيه ــ أولاً : بتصورها الاعتقادى القائم على تأليه غير الله ــ معه أو من دونه ــ وتدخل فيه ثانيًا : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التى تعتقد بألوهيتها .. كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع ، المرجع فيها لغير الله وشريعته . سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ ، أو استمدتها من هيئات مدنية «علمانية» تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله .. أى أن لها الحاكمية العليا باسم (الشعب) او باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان .. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله سبحانه ، ولا تزاول إلا بالطريقة التى بَلَّغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية فى أرجاء الأرض جميعًا .. تدخل فيه هذه المجتمعات أولاً : بتصورها الاعتقادى المحرَّف ، الذى لا يفرد الله ــ سبحانه ــ بالألوهية بل يجعل له شركاء فى صورة من صور الشرك ، سواء بالبنوة أو بالتثليث ، أو بتصور الله

سبحانه على غير حقيقته ، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها :

« وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ؟ » ..

[التوبة : ٣٠]

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم » ...

[المائدة : ٧٣]

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ...

[المائدة : ٦٤]

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحبَّاؤه . قل : فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق » ...

[المائدة : ١٨]

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .. ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها ، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده ؛ بالإقرار له وحده بحق الحاكمية ، واستمداد السلطان من شرعه ، بل تقيم هيئات من البشر ، لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه .. وقديمًا وصمهم الله بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان ،

يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله – والمسيح ابن مريم – وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا . لا إله إلا هو . سبحانه عَمَّا يشركون » ..

[التوبة : ٣١]

وهم لم يكونوا يعتقدون فى ألوهية الأحبار والرهبان . ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية ، إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم ، بما لم يأذن به الله ، فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر ، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحبارًا ولا رهبانًا .. وكلهم سواء ..

وأخيرًا يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى تلك المجتمعات التى تزعم لنفسها أنها « مسلمة » ! .

وهذه المجتمعات لا تدخل فى هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا ، ولكنها تدخل فى هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده فى نظام حياتها . فهى – وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله – تعطى أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها ، وشرائعها وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريبًا ! .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين :

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» ..

[المائدة : ٤٤]

ويقول عن المحكومين :

«ألم تر إلى الذين **يزعمون** أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت . وقد أمروا أن يكفروا به** ... » إلى أن يقول : « ... **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم** ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا » ..

[النساء : ٦٠ ـ ٦٥]

كما إنه ـ سبحانه ـ قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده ، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دونه ، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم «مسلمون» لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركًا كاتخاذهم عيسى ابن مريم ربًا يؤلهونه ويعبدونه سواء . فهذه كتلك ـ خروج من العبودية لله وحده ، فهى خروج من دين الله ، ومن شهادة أن لا إله إلا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة «علمانيته» وعدم علاقته بالدين أصلاً ، وبعضها يعلن أنه «يحترم الدين» ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعى أصلاً ، ويقول : إنه ينكر «الغيبية» ويقيم نظامه على «العلمية» باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية ! وهو زعم جاهل لا يقول

به إلا الجهال[1] وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هذه شريعة الله ! .. وكلها سواء فى أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

وإذا تعين هذا ، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد فى عبارة واحدة :

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها فى اعتباره .

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التى تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. إنها كلها تلتقى فى حقيقة واحدة .. وهى أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده . وهى من ثم تلتقى ــ مع سائر المجتمعات الأخرى ــ فى صفة واحدة .. صفة « الجاهلية » ..

* * *

وهذا يقودنا إلى القضية الأخيرة وهى منهج الإسلام فى مواجهة الواقع البشرى كله .. اليوم وغدًا وإلى آخر الزمان .. وهنا ينفعنا ما قررناه فى الفقرة الأولى عن « طبيعة المجتمع المسلم » ، وقيامه على العبودية لله وحده فى أمره كله .

---

(١) يراجع ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » فى الجزء السابع من الظلال .

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال :

ـ ما الأصل الذى ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشرى أيًّا كان ؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة .. إن الأصل الذى يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة .. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله التى هى ركن الإسلام الأول ، لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ، ثم يتبع اتباعًا كاملاً بلا تلعثم ولا تردد :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »

[الحشر : ٧]

ثم إن الإسلام يسأل :

« أأنتم أعلم أم الله ؟ » ..

ويجيب :

« والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ..

والذى يعلم ـ والذى يخلق ويرزق كذلك ـ هو الذى يحكم .. ودينه الذى هو منهجه للحياة ، هو الأصل الذى ترجع إليه الحياة .. أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهى تفسد وتنحرف ، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون ، والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً !

ودين الله ليس غامضًا ، ومنهجه للحياة ليس مائعًا .. فهو محدد بشطر الشهادة الثانى : محمد رسول الله . فهو محصور فيما بَلَّغه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من النصوص فى الأُصول .. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص . وإن لم يكن هناك نص فهنا يجىء دور الاجتهاد ـ وفق أصوله المقررة فى منهج الله ذاته . لا وفق الأهواء والرغبات ـ :

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » ..

[النساء : ٥٩]

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة ، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى من البشر ، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعى سلطانًا باسم الله . كالذى عرفته أوروبا ذات يوم باسم « الثيوقراطية » أو « الحكم المقدس » فليس شىء من هذا فى الإسلام . وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما هنالك نصوص معينة هى التى تحدد ما شرع الله ..

إن كلمة « الدين للواقع » يساء فهمها ، ويساء استخدامها كذلك . نعم إن هذا الدين للواقع . ولكن أى واقع !

.. إنه الواقع الذى ينشئه هذا الدين نفسه ، وفق منهجه ، منطبقًا على الفطرة البشرية فى سوائها ، ومحققًا للحاجات الإنسانية الحقيقية فى

شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق ، والذي يعلم من خلق :

«ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ! »

[الملك : ١٤]

والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقرَّه ويبحث له عن سند منه ، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة ! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه ، فيقر منه ما يقر ، ويلغي منه ما يلغي ، وينشىء واقعًا غيره إن كان لا يرتضيه ، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعنى بأن الإسلام : « دين للواقع » .. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح !

ولعله يثار هنا سؤال :

«أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم ؟ » !

ومرة أُخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجيب عليه :

- «أأنتم أعلم أم الله » ؟

- « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » !

إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله ، كما أَنزله الله ، وكما بَلَّغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم .. أولاً : «واهمون» فيما بدا لهم .

«إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم

الهدى ، أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى » ...

[النجم : ٢٣ ـ ٢٥]

وهم .. ثانيًا : «كافرون » .. فما يدعى أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفًا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين . ومن أهل هذا الدين !

* * *

شَرِيعَةٌ كَوْنِيَّة

إن الإسلام حين يقيم بناءه الاعتقادى فى الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده ، ويجعل هذه العبودية متمثلة فى الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء ، باعتبار أن هذه العبودية الكاملة لله وحده ـ فى صورتها هذه ـ هى المدلول العملى لشهادة أن لا إله إلا الله .. وأن التلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده هو المدلول العملى كذلك لشهادة أن محمدًا رسول الله ...

إن الإسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الأساس ، بحيث تمثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله منهج الحياة فى الإسلام ، وتصور ملامح هذا المنهج . وتقرر خصائصه .. إن الإسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذى يفرقه عن جميع الأنظمة الأخرى التى عرفتها البشرية .. إنما يرجع إلى أصل أشمل فى تقريره عن الوجود كله ، لا عن الوجود الإنسانى وحده . وإلى منهج للوجود كله لا منهج للحياة الإنسانية وحدها .

إن التصور الإسلامى يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله ـ سبحانه ـ قوانينه

التى يتحرك بها ، والتى تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها ، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء .

«إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كُنْ فَيكون »

[النحل : ٤٠]

«وخلق كل شيء فقدره تقديرًا » ..

[الفرقان : ٢]

إن وراء هذا الوجود الكونى مشيئة تدبره ، وقدرًا يحركه ، وناموسًا ينسقه . هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها ، وينظم حركاتها جميعًا ، فلا تصطدم ، ولا تختل ، ولا تتعارض ، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة ـ إلى ما شاء الله ـ كما إن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التى تدبره ، والقدر الذى يحركه . والناموس الذى ينسقه . بحيث لا يخطر له فى لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة ، أو أن يتنكر للقدر ، أو أن يخالف الناموس وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد إلا إن يشاء الله :

«إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ..

[الأعراف : ٥٤]

* * *

والإنسان من هذا الوجود الكونى ، والقوانين التى تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذى يحكم الوجود كله .. لقد خلقه الله - كما خلق هذا الوجود - وهو فى تكوينه المادى من طين هذه الأرض ، وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنسانًا ، إنما رزقه الله إياه مقدرًا تقديرًا ، وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمى للناموس الطبيعى الذى سنَّه الله له - رضى أم أبى - يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه - فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنين وجوده - وهو يُولَد وفق الناموس الذى وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة . وهو يتنفس هذا الهواء الذى أوجده الله بمقاديره هذه ، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التى أرادها الله له . وهو يحس ويتألم ، ويجوع ويعطش ، يأكل ويشرب ، ويمثل الطعام والشراب .. وبالجملة يعيش .. وفق ناموس الله ، عن غير إرادة منه ولا اختيار ، شأنه فى هذا شأن هذا الوجود الكونى وكل ما فيه وكل من فيه ، فى الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه ...

والله الذى خلق هذا الوجود الكونى وخلق الإنسان ، والذى أخضع الإنسان لنواميسه التى أخضع لها الوجود الكونى .. هو - سبحانه - الذى سن للإنسان « شريعة » لتنظيم حياته الإرادية تنظيمًا متناسقًا مع حياته الطبيعية . فالشريعة - على هذا الأساس - إن هى إلا قطاع من الناموس الإلهى العام الذى يحكم فطرة الإنسان ، وفطرة الوجود العام ، وينسقها كلها جملةً واحدةً .

وما من كلمة من كلمات الله ، ولا أمر ولا نهى ، ولا وعد ولا وعيد ، لا تشريع ولا توجيه ... إلا هى شطر من الناموس العام ،

وصادقة فى ذاتها صدق القوانين التى نسميها القوانين الطبيعية ـ أى القوانين الإلهية الكونية ـ التى نراها تتحقق فى كل لحظة ، بحكم ما فى طبيعتها من حق أزلى أودعه الله فيها ، وهى تتحقق بقدر الله .

و « الشريعة » التى سنَّها الله لتنظيم حياة البشر هى ـ من ثم ـ شريعة كونية . بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ، ومتناسقة معه .. ومن ثم فإن الالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان ، وحركة الكون الذى يعيش فيه .. بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التى تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التى تحكم حياتهم الظاهرة . وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان ..

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام ـ ولا حتى بهذا الذى يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له ـ رضوا أم أبوا ـ فإنهم ـ من ثم ـ لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظامًا يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة . إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ، ومدبر أمره وأمرهم ، وفق الناموس الواحد الذى اختاره وارتضاه .

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجبًا لتحقيق ذلك التناسق .. وذلك فوق وجوبه لتحقق الإسلام اعتقادًا . فلا وجود للإسلام فى حياة فرد أو حياة جماعة ، إلا بإخلاص العبودية لله وحده ، وبالتلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده ، تحقيقًا لمدلول ركن الإسلام الأول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وفى تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر ، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد .. إنهم ـ فى هذه الحالة وحدها ـ يعيشون فى سلام مع أنفسهم .. فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون ، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه .. وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة ، فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته ، لأن شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة ، فى يسر وهدوء .. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر فى ارتباط الناس ونشاطهم العام ، لأنهم جميعا يسلكون حينئذ وفق منهج موحد ، هو طرف من الناموس الكونى العام .

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق إهتدائها وتعرفها فى يسر إلى أسرار هذا الكون ، والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة فى أطوائه ، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله ، لتحقيق الخير البشرى العام ، بلا تعارض ولا اصطدام .

ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ...

[المؤمنون : ٧١]

ومن ثمَّ توحد النظرة الإسلامية بين الحق الذى يقوم عليه هذا الدين ، والحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض . ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب الله به ويجازى من يتعدونه .. فهو حق واحد لا يتعدد ، وهو الناموس الكونى العام الذى أراده الله لهذا الوجود فى

جميع الأحوال . والذى يخضع له ويؤخذ به كل ما فى الوجود من عوالم وأشياء وأحياء .

«لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم . أفلا تعقلون ! وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ! فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدًا خامدين . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا .. إن كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السماوات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون »...

[الأنبياء : ١٠ ـ ٢٠]

وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق فى أعماقها . فطبيعة تكوينه وطبيعة هذا الكون كله من حوله ، توحى إلى فطرته بأن هذا الوجود قائم على الحق ، وأن الحق أصيل فيه ، وأنه ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تختلف دورته . ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة . ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة ! إنما يمضى فى نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرًا .. ومن ثم يقع الشقاق ـ أول ما يقع ـ بين الإنسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن فى أعماقها ، تحت تأثير هواه . وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله . وعندما لا يستسلم لله استسلام هذا الوجود الكونى الخاضع لمولاه !

ومثل هذا الشقاق يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال ، كما يقع بين البشر والكون من حولهم ، فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء ، بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبنى الإنسان .

وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله فى الأرض ليس مجرد العمل للآخرة . فالدنيا والآخرة معًا مرحلتان متكاملتان ، وشريعة الله هى التى تنسق بين المرحلتين فى حياة هذا الإنسان . تنسق الحياة كلها مع الناموس الإلهى العام .

والتناسق مع الناموس لا يؤجّل سعادة الناس إلى الآخرة ، بل يجعلها واقعة ومتحققة فى المرحلة الأولى كذلك ، ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها فى الدار الآخرة .

* * *

هذا هو أساس التصور الإسلامى للوجود كله ، وللوجود الإنسانى فى ظل ذلك الوجود العام ، وهو تصور يختلف فى طبيعته اختلافًا جوهريًا عن كل تصور آخر عرفته البشرية ، ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أى تصور آخر فى جميع الأنظمة والنظريات ..

إن الالتزام بشريعة الله ـ فى هذا التصور ـ هو مقتضى الإرتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون ، وبين الناموس الذى يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون ، ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام

والشريعة التى تنظم حياة بنى الإنسان ، وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده ، كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدّعيها لنفسه إنسان .

وإلى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار الذى جرى بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبى هذه الأمة المسلمة ـ وبين « نمرود » المتجبر المدعى بحق السلطان على العباد فى الأرض ، والذى لم يستطع ـ مع ذلك ـ أن يدعى بحق السلطان على الأفلاك والأجرام فى الكون ، وبهت أمام إبراهيم عليه السلام . وهو يقول له : إن الذى يملك السلطان فى الكون هو وحده الذى ينبغى أن يكون له السلطان فى حياة البشر ، ولم يحر جوابًا على هذا البرهان :

« ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه ـ أن آتاه الله الملك ـ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت . قال : أنا أُحيى وأُميت ! قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب .. فبهت الذى كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين » ..

[البقرة : ٢٥٨]

وصدق الله العظيم :

« أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون ؟! » ..

[آل عمران : ٨٣]

الإسْلامُ هُوَالحَضَارَة

الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات ... مجتمع إسلامى ، ومجتمع جاهلى ..

« المجتمع الإسلامى » هو المجتمع الذى يطبق فيه الإسلام .. عقيدة وعبادة ، وشريعة ونظامًا ، وخلقًا وسلوكًا .. و« المجتمع الجاهلى » هو المجتمع الذى لا يطبق فيه الإسلام ، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته ، وقيمه وموازينه ، ونظامه وشرائعه ، وخلقه وسلوكه ..

ليس المجتمع الإسلامى هو الذى يضم ناسًا ممن يسمون أنفسهم « مسلمين » ، بينما شريعة الإسلام ليست هى قانون هذا المجتمع ، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام ! وليس المجتمع الإسلامى هو الذى يبتدع لنفسه إسلامًا من عند نفسه ـ غير ما قرره الله سبحانه ، وفصَّله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويسميه مثلاً « الإسلام المتطور » !

و « المجتمع الجاهلى » قد يتمثل فى صور شتى ـ كلها جاهلية ـ :

قد يتمثل فى صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى ، ويفسر التاريخ تفسيرًا ماديًا جدليًا ، ويطبق ما يسميه « الاشتراكية العلمية » نظامًا .

وقد يتمثل فى مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى ، ولكن يجعل له ملكوت السماوات ، ويعزله عن ملكوت الأرض ، فلا يطبق شريعته

فى نظام الحياة ، ولا يحكِّم قيمه التى جعلها هو قيمًا ثابتة فى حياة البشر ، ويبيح للناس أن يعبدوا الله فى البيَع والكنائس والمساجد ، ولكنه يحرِّم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله فى حياتهم ، وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله فى الأرض ، التى ينص عليها قوله تعالى :

«وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرض إلهُ» ..

[الزخرف : ٨٤]

ومن ثم لا يكون هذا المجتمع فى دين الله الذى يحدده قوله :

«إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم» ..

[يوسف : ٤٠]

وبذلك يكون مجتمعًا جاهليًا ، ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله ، فى البيَع والكنائس والمساجد .

«المجتمع الإسلامى» ـ بصفته تلك ـ هو وحده «المجتمع المتحضر» ، والمجتمعات الجاهلية ـ بكل صورها المتعددة ـ مجتمعات متخلفة ! ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة .

لقد كنت قد أعلنتُ مرة عن كتاب لى تحت الطبع بعنوان : «نحو مجتمع إسلامى متحضر» .. ثم عدت فى الإعلان التالى عنه فحذفت كلمة «متحضر» مكتفيًا بأن يكون عنوان البحث ـ كما هو موضوعه ـ «نحو مجتمع إسلامى» ..

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائرى (يكتبه بالفرنسية) ففسره على أنه ناشئ من «عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام» وأسف لأن هذه

العملية ـ غير الواعية ـ تحرمنى مواجهة «المشكلة» على حقيقتها !

أنا أعذر هذا الكاتب .. لقد كنت مثله من قبل .. كنت أفكر على النحو الذى يفكر هو عليه الآن .. عندما فكرت فى الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة !.. وكانت المشكلة عندى ـ كما هى عنده اليوم ـ هى مشكلة : «تعريف الحضارة» !

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية فى تكوينى العقلى والنفسى ، وهى رواسب آتية من مصادر أجنبية .. غريبة على حسى الإسلامى .. وعلى الرغم من اتجاهى الإسلامى الواضح فى ذلك الحين ، إلا أن هذه الرواسب كانت تغبِّش تصورى وتطمسه ! كان تصور «الحضارة» ـ كما هو الفكر الأوروبى ـ يخايل لى ، ويغبش تصورى ، ويحرمنى الرؤية الواضحة الأصيلة ،

ثم انجلت الصورة .. «المجتمع المسلم» هو «المجتمع المتحضر» . فكلمة «المتحضر» إذن لغو ، لا يضيف شيئًا جديدًا .. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حس القارئ تلك الظلال الأجنبية الغربية التى كانت تغبش تصورى ، وتحرمنى الرؤية الواضحة الأصيلة !

الاختلاف إذن هو على «تعريف الحضارة» .. ولا بد من إيضاح إذن لهذه الحقيقة !

* * *

حين تكون الحاكمية العليا فى مجتمع لله وحده ـ متمثلة فى سيادة الشريعة الإلهية ـ تكون هذه هى الصورة الوحيدة التى يتحرر فيها البشر

تحررًا كاملاً وحقيقيًا من العبودية للبشر.. وتكون هذه هى «الحضارة الإنسانية» لأن حضارة الإنسان تقتضى قاعدة أساسية من التحرر الحقيق الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد فى المجتمع.. ولا حرية - فى الحقيقة - ولا كرامة للإنسان - ممثلاً فى كل فرد من أفراده - فى مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون!

ولا بد أن نبادر فنبيِّن أن التشريع لا ينحصر فقط فى الأحكام القانونية - كما هو المفهوم الضيق فى الأذهان اليوم لكلمة الشريعة - فالتصورات والمناهج، والقيم والموازين، والعادات والتقاليد.. كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه. وحين يصنع الناس - بعضهم لبعض - هذه الضغوط، ويخضع لها البعض الآخر منهم فى مجتمع، لا يكون هذا المجتمع متحررًا، إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد - كما أسلفنا - وهو - من ثم - مجتمع متخلف.. أو بالمصطلح الإسلامى.. «مجتمع جاهلى»!

والمجتمع الإسلامى هو وحده المجتمع الذى يهيمن عليه إله واحد، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وبذلك يتحررون التحرر الحقيق الكامل، الذى ترتكز إليه حضارة الإنسان، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له، وهو يعلن خلافته فى الأرض عنه، ويعلن كذلك تكريمه فى الملأ الأعلى..

* * *

وحين تكون آصرة التجمع الأساسية فى مجتمع هى العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، ويكون هذا كله صادرًا من إله واحد، تتمثل

فيه السيادة العليا للبشر ، وليس صادرًا من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر.. يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما فى «الإنسان» من خصائص.. خصائص الروح والفكر.. فأما حين تكون آصرة التجمع فى مجتمع هى الجنس واللون والقوم والأرض ... وما إلى ذلك من الروابط ، فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان.. فالإنسان يبقى إنسانًا بعد الجنس واللون والقوم والأرض ، ولكنه لا يبقى إنسانًا بعد الروح والفكر ! ثم هو يملك - بمحض إرادته الحرة - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته ، ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه ، كما إنه لا يملك أن يحدد مولده فى قوم ولا فى أرض.. فالمجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتى هو المجتمع المتحضر.. أما المجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو لمجتمع المتخلف.. أو بالمصطلح الإسلامى.. هو «المجتمع الجاهلى» !

والمجتمع الإسلامى وحده هو المجتمع الذى تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية ، والذى تعتبر فيه العقيدة هى الجنسية التى تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والعربى والرومى والفارسى والحبشى وسائر أجناس الأرض فى أمة واحدة ، ربها الله ، وعبوديتها له وحده ، والأكرم فيها هو الأتقى ، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم ، ولم يشرعه أحد من العباد !

* * *

وحين تكون «إنسانية» الإنسان هى القيمة العليا فى مجتمع ، وتكون

الخصائص «الإنسانية» فيه هى موضع التكريم والاعتبار ، يكون هذا المجتمع متحضرًا .. فأما حين تكون «المادة» ــ فى أية صورة ــ هى القيمة العليا .. سواء فى صورة «النظرية» كما فى التفسير الماركسى للتاريخ ! أو فى صور «الإنتاج المادى» كما فى أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التى تعتبر الإنتاج المادى قيمة عليا تهدر فى سبيلها القيم والخصائص الإنسانية .. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعًا متخلفًا .. أو بالمصطلح الإسلامى مجتمعًا جاهليًا !

إن المجتمع المتحضر .. الإسلامى .. لا يحتقر المادة ، لا فى صورة النظرية (باعتبارها هى التى يتألف منها هذا الكون الذى نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه أيضًا) ولا فى صور «الإنتاج المادى» . فالإنتاج المادى من مقومات الخلافة فى الأرض عن الله ــ ولكنه فقط لا يعتبرها هى القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص «الإنسان» ومقوماته !.. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته . وتهدر فيها قاعدة «الأُسرة» ومقوماتها ، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته .. إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة فى الإنتاج المادى !

وحين تكون «القيم الإنسانية» و «الأخلاق الإنسانية» التى تقوم عليها ، هى السائدة فى مجتمع ، يكون هذا المجتمع متحضرًا . والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيمًا «متطورة» متغيرة متبدلة ، لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل ، كما يزعم التفسير المادى للتاريخ ، وكما تزعم «الاشتراكية العلمية» !

إنها القيم والأخلاق التى تنمِّى فى الإنسان خصائص الإنسان التى يتفرد بها دون الحيوان ، والتى تُغَلِّب فيه هذا الجانب الذى يميزه ويعزوه عن الحيوان ، وليست هى القيم والأخلاق التى تنمِّى فيه وتُغَلِّب الجوانب التى يشترك فيها مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم « وثابت » لا يقبل عملية التمييع المستمرة التى يحاولها « التطوريون » ! و « الاشتراكيون العلميون » !

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذى يحدد القيم الأخلاقية ، إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت .. عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق « زراعية » وأخرى « صناعية » ! ولا قيم وأخلاق « رأسمالية » وأخرى « اشتراكية » ، ولا قيم وأخلاق « برجوازية » وأخرى « صعلوكية » ! ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة .. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية .. إنما تكون هناك ـ من وراء ذلك كله ـ قيم وأخلاق « إنسانية » وقيم وأخلاق « حيوانية » ـ إذا صح هذا التعبير ! ـ أو بالمصطلح الإسلامى : قيم وأخلاق « إسلامية » وقيم وأخلاق « جاهلية » .

إن الإسلام يقرر قيمه وأخلاقه هذه « الإنسانية » ـ أى التى تنمِّى فى الإنسان الجوانب التى تفرقه وتميزه عن الحيوان ـ ويمضى فى إنشائها وتثبيتها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات فى طور الزراعة أم فى طور الصناعة ، وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعى أو مجتمعات حضرية مستقرة ، وسواء كانت

هذه المجتمعات فقيرة أو غنية .. إنه يرتقى صعدًا بالخصائص الإنسانية ، ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية .. لأن الخط الصاعد فى القيم والاعتبارات يمضى من الدرك الحيوانى إلى المرتفع الإنسانى .. فإذا انتكس هذا الخط ـ مع حضارة المادة ـ فلن يكون ذلك حضارة ! إنما هو « التخلف » أو هو « الجاهلية » !

* * *

وحين تكون « الأسرة » هى قاعدة المجتمع . وتقوم هذه الأسرة على أساس « التخصص » بين الزوجين فى العمل . وتكون رعاية الجيل الناشئ هى أهم وظائف الأسرة .. يكون هذا المجتمع متحضرًا .. ذلك أن الأسرة على هذا النحو ـ فى ظل المنهج الإسلامى ـ تكون هى البيئة التى تنشأ وتُنَمَّى فيها القيم والأخلاق « الإنسانية » التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة ، ممثلة فى الجيل الناشئ ، والتى يستحيل أن تنشأ فى وحدة أخرى غير وحدة الأسرة ، فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعى) هى قاعدة المجتمع .. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال ، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفى فى الأسرة .. حين تصبح وظيفة المرأة هى الزينة والغواية والفتنة .. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية فى رعاية الجيل الجديد ، وتُؤْثِر هى ـ أو يُؤْثِر لها المجتمع ـ أن تكون مضيفة فى فندق أو سفينة أو طائرة !.. حين تنفق طاقتها فى « الإنتاج المادى » و « صناعة الأدوات » ولا تنفقها فى « صناعة الإنسانية » ! لأن الإنتاج المادى يومئذ أغلى وأعز وأكرم من « الإنتاج الإنسانى » ، عندئذ يكون هنا هو « التخلف الحضارى » بالقياس

الإنسانى .. أو تكون هى «الجاهلية» بالمصطلح الإسلامى !

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة فى تحديد صفة المجتمع .. متخلف أم متحضر ، جاهلى أم إسلامى !.. والمجتمعات التى تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية فى هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة ، مهما تبلغ من التفوق الصناعى والاقتصادى والعلمى ! إن هذا المقياس لا يخطئ فى قياس مدى التقدم «الإنسانى» ..

وفى المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم «الأخلاقى» ؛ بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز «الإنسانى» عن الطابع «الحيوانى» ! ففى هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية ـ ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة ـ رذيلة أخلاقية .. إن المفهوم الأخلاقى يكاد ينحصر فى المعاملات الاقتصادية ـ والسياسية أحيانًا فى حدود «مصلحة الدولة» ـ ففضيحة كريستين كيلر وبروفيمو الوزير الإنجليزى ـ مثلاً ـ لم تكن فى عرف المجتمع الإنجليزى فضيحة بسبب جانبها الجنسى .. إنما كانت فضيحة لأن كريستين كيلر كانت صديقة كذلك للملحق البحرى الروسى . ومن هنا يكون هناك خطر على أسرار الدولة فى علاقة الوزير بهذه الفتاة ! وكذلك لأنه افتضح كذبه على البرلمان الإنجليزى ! والفضائح المماثلة فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، وفضائح الجواسيس والموظفين الإنجليز والأمريكان الذين هربوا إلى روسيا . إنها ليست فضائح بسبب شذوذهم الجنسى ! ولكن بسبب الخطر على أسرار الدولة !

والكُتّاب والصحفيون والروائيون فى المجتمعات الجاهلية هنا وهناك

يقولونها صريحة للفتيات والزوجات : إن الاتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية . الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود ، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت ! والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة !.. عشرات من القصص هذا محورها ! ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتورية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها ..

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة .. غير متحضرة .. من وجهة نظر « الإنسان » وبمقياس خط التقدم « الإنسانى » ..

إن خط التقدم الإنسانى يسير فى اتجاه « الضبط » للنزوات الحيوانية ، وحصرها فى نطاق « الأسرة » على أساس « الواجب » لتؤدى بذلك « وظيفة إنسانية » ليست اللذة غايتها ، وإنما هى إعداد جيل إنسانى يخلف الجيل الحاضر فى ميراث الحضارة « الإنسانية » التى يميزها بروز الخصائص الإنسانية .. ولا يمكن إعداد جيل يترقى فى خصائص الإنسان . ويبتعد عن خصائص الحيوان ، إلا فى محضن أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفى ، وقائمة على أساس الواجب الذى لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة . وفى المجتمع الذى تنشئه تلك التوجيهات والإيحاءات الخبيثة المسمومة ، والذى ينحسر فيه المفهوم الأخلاقى ، فيتخلى عن كل آداب الجنس ، لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنسانى ..

من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات

الإسلامية هى اللائقة بالإنسان . ويكون «الإسلام هو الحضارة» ويكون المجتمع الإسلامى هو المجتمع المتحضر.. بذلك المقياس الثابت الذى لا يتميع أو لا «يتطور» .

* * *

وأخيرًا فإنه حين يقوم «الإنسان» بالخلافة عن «الله» فى أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره ، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره ، وأن يُحَكِّم شريعة الله وحدها فى حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها ، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التى قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة . ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التى أودعها الله هذا الكون المادى ، ويستخدمها فى ترقية الحياة . وفى استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التى أودعها الله إياها ، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذى يلزم له فى الخلافة .. أى حين ينهض بالخلافة فى الأرض على عهد الله وشرطه ، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ، ويصنِّع المادة الخامة ، ويقيم الصناعات المتنوعة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التى حصل عليها الإنسان فى تاريخه كله .. حين يصبح وهو يصنع هذا كله «ربانيًا» يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو ـ عبادة لله . يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة .. فأما الإبداع المادى ـ وحده ـ فلا يسمى فى الإسلام حضارة .. فقد يكون وتكون معه الجاهلية .. وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادى فى معرض وصف الجاهلية نماذج :

«أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون! وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»

[الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٥]

«أتتركون فيما ها هنا آمنين؟ فى جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم، وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين؟ فاتقوا الله وأطيعون، ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون».

[الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٢]

«فلما نسوا ما ذكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين»...

[الأنعام : ٤٤ ـ ٤٥]

«حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس».

[يونس : ٢٤]

ولكن الإسلام ـ كما أسلفنا ـ لا يحتقر المادة، ولا يحتفر الإبداع المادى، إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم ـ فى ظل منهج الله ـ نعمة من نعم الله على عباده، يبشرهم به جزاء على طاعته:

«فقلت: استغفروا ربكم، إنه كان غفَّارًا، يرسل السماء عليكم

مدرارًا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا » ...

[نوح : ١٠ - ١٢]

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ...

[الأعراف : ٩٦]

المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي ، والقيم التي تسود المجتمع ، والتي يتألف من مجموعها خصائص الحضارة « الإنسانية » ..

* * *

وبعد .. فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي ، وطبيعة تكوينه العضوي ، تجعلان منه مجتمعًا فريدًا لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي .. المجتمع الإسلامي وليد الحركة ، والحركة فيه مستمرة ، وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم ، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي ، ومن خارج المحيط البشري .. إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر ، تنشئ لهم تصورًا خاصًا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات ، وتحدد لهم منهجًا للعمل يترجم هذا التصور .. الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون .. إنها - كما قلنا - آتية لهم من خارج النطاق الأرضي ، ومن

خارج المحيط البشرى .. وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامى وتركيبه .

إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادى .

وبهذا العنصر القدرى الغيبى الذى لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ، ودون أن يكون للإنسان يد فيه ـ فى ابتداء الأمر ـ تبدأ أولى خطوات الحركة فى قيام المجتمع الإسلامى . ويبدأ معها عمل «الإنسان» أيضًا . إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبى ، الجارية بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامى (حكمًا) .. إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوى على نفسه .. إنه سينطلق بها .. هذه طبيعتها .. طبيعة الحركة الحية .. إن القوة العليا التى دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتمًا !.. إن الدفعة الحية التى وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضى فى طريقها قدمًا .

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : أنتم الآن مجتمع ، مجتمع إسلامى مستقل ، منفصل عن المجتمع الجاهلى الذى لا يدين لهذه العقيدة ، ولا تسود فيه قيمها الأساسية ـ القيم التى أسلفنا الإشارة إليها ـ وهنا يكون المجتمع الإسلامى قد وُجِدَ (فعلاً) !

والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مائة ، والمائة يصبحون

ألفًا ، والألف يصبحون إثنى عشر ألفًا .. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامى !

وفى الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذى انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته ، وانفصل بوجوده وكينونته ، عن المجتمع الجاهلى ـ الذى أخذ منه أفراده ـ وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع ، وأعطته وزنه ومكانه فى هذا المجتمع ـ حسب الميزان والاعتبار الإسلامى ـ ويكون وزنه هذا معترفًا له به من المجتمع دون أن يزكى نفسه أو يعلن عنه بل إن عقيدته وقيمه السائدة فى نفسه وفى مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليوارى نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه فى البيئة !

ولكن «الحركة» التى هى طابع العقيدة الإسلامية ، وطابع هذا المجتمع الذى انبثق منها ، لا تدع أحدًا يتوارى ! إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لا بد أن يتحرك ! الحركة فى عقيدته ، والحركة فى دمه ، والحركة فى مجتمعه ، وفى تكوين هذا المجتمع العضوى .. إن الجاهلية من حوله ، وبقية من رواسبها فى نفسه وفى نفوس من حوله ، والمعركة مستمرة ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

على إيقاعات الحركة ، وفى أثناء الحركة ، يتحدد وضع كل فرد فى هذا المجتمع ، وتتحدد وظيفته ، ويتم التكوين العضوى لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشأة ، وهذا التكوين ، خاصيتان من خصائص المجنمع

الإسلامى تُميزانه ، تُميزان وجوده وتركيبه ، وتُميزان طابعه وشكله ، وتُميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضًا ، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة ، لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها ، ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها ، ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر !

* * *

إن المجتمع الإسلامى - كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة - ليس مجرد صورة تاريخية ، يبحث عنها فى ذكريات الماضى ، إنما هو طلبة الحاضر وأمل المستقبل . إنه هدف يمكن أن تستشرفه البشرية كلها اليوم وغدًا ، لترتفع به من وهدة الجاهلية التى تتردى فيها ، سواء فى هذه الجاهلية الأمم المتقدمة صناعيًا واقتصاديًا والأمم المتخلفة أيضًا .

إن تلك القيم التى أشرنا إليها إجمالاً هى قيم إنسانية ، لم تبلغها الإنسانية إلا فى فترة « الحضارة الإسلامية » . (ويجب أن ننبه إلى ما نعنيه بمصطلح « الحضارة الإسلامية » .. إنها الحضارة التى توافرت فيها تلك القيم ، وليست هى كل تقدم صناعى أو اقتصادى أو علمى مع تخلف القيم عنها) .

وهذه القيم ليست « مثالية خيالية » إنما هى قيم واقعية عملية ، يمكن تحقيقها بالجهد البشرى - فى ظل المفهومات الإسلامية الصحيحة - ، يمكن تحقيقها فى كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائدة فيها ، وعن تقدمها الصناعى والاقتصادى والعلمى .. فهى لا تعارض - بل تشجع بالمنطق العقيدى ذاته - التقدم فى كافة حقول الخلافة ، ولكنها فى

الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين فى البلاد التى لم تتقدم فى هذه الحقول بعد . إن الحضارة يمكن أن تقوم فى كل مكان وفى كل بيئة .. تقوم بهذه القيم . أما أشكالها المادية التى تتخذها فلا حد لها ، لأنها فى كل بيئة تستخدم المقدرات الموجودة بها فعلاً وتنميها .

المجتمع الإسلامى إذن ـ من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه ـ ليس صورة تاريخية ثابتة ، لكن وجوده وحضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة .. وحين نقول : «تاريخية» لا نعنى إلا أن هذه القيم قد عرفت فى تاريخ معين .. وإلا فهى ليست من صنع التاريخ ، ولا علاقة لها بالزمن فى طبيعتها .. إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر ربانى .. من وراء الواقع البشرى . ومن وراء الوجود المادى أيضًا .

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة فى تركيبها المادى والتشكيلى ، ولكن الأصول والقيم التى تقوم عليها ثابتة ، لأنها هى مقومات هذه الحضارة : (العبودية لله وحده . والتجمع على آصرة العقيدة فيه . واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة . وسيادة القيم الإنسانية التى تنمى إنسانية الإنسان لا حيوانيته .. وحرمة الأسرة . والخلافة فى الأرض على عهد الله وشرطه .. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها فى شؤون هذه الخلافة) ..

إن «أشكال» الحضارة الإسلامية التى تقوم على هذه الأسس الثابتة ، تتأثر بدرجة التقدم الصناعى والاقتصادى والعلمى ، لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً فى كل بيئة .. ومن ثمَّ لا بد أن تختلف أشكالها .. لا بد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات

والمستويات فى الإطار الإسلامى ، والتكيف بالقيم والمقومات الإسلامية .. وهذه المرونة ــ فى الأشكال الخارجية للحضارة ــ ليست مفروضة على العقيدة الإسلامية التى تنبثق منها تلك الحضارة إنما هى من طبيعتها . ولكن المرونة ليست هى التميع .. والفرق بينهما بعيد جدًا !

لقد كان الإسلام ينشىء الحضارة فى أواسط أفريقية بين العراة .. لأنه بمجرد وجوده هناك تكتسى الأجسام العارية ويدخل الناس فى حضارة اللباس التى يتضمنها التوجيه الإسلامى المباشر ، ويبدأ الناس فى الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المادى ، ويخرجون كذلك من طور القبيلة ــ أو العشيرة ــ إلى طور الأمة ، وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين .. فما هى الحضارة إن لم تكن هى هذا ؟.. إنها حضارة هذه البيئة ، التى تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلاً .. فأما حين يدخل الإسلام فى بيئة أخرى فإنه ينشىء ــ بقيمه الثابتة ــ شكلاً آخر من أشكال الحضارة يستخدم فيه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميها .

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة ــ بطريقة الإسلام ومنهجه ــ على درجة معينة من التقدم الصناعى والاقتصادى والعلمى . وإنْ كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم ــ عند وجوده ــ وتدفعه إلى الأمام دفعًا ، وترفع أهدافه . كما إنها تنشئه إنشاءً حين لا يكون ، وتكفل نموه واطراده .. ولكنها تظل فى كل حال قائمة على أصولها المستقلة . ويبقى للمجتمع الإسلامى طابعه الخاص ، وتركيبه العضوى ،

الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى ، التى يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية ..

«صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟» ...

[البقرة : ١٣٨]

* * *

التصور الإسلامى والثقافة

العبودية المطلقة لله وحده هى الشطر الأول لركن الإسلام الأول ، فهى المدلول المطابق لشهادة أن لا إله إلا الله . والتلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثانى لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة أن محمدًا رسول الله ـ كما جاء فى فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » ..

والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل فى اتخاذ الله وحده إلهًا .. عقيدة وعبادة وشريعة .. فلا يعتقد المسلم أن « الألوهية » تكون لأحد غير الله ـ سبحانه ـ ولا يعتقد أن « العبادة » تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد أن « الحاكمية » تكون لأحد من عباده .. كما جاء فى ذلك الفصل أيضًا .

ولقد أوضحنا هناك مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية ، وفى هذا الفصل نوضح مدلول « الحاكمية » وعلاقته « بالثقافة » .

إن مدلول « الحاكمية » فى التصور الإسلامى لا ينحصر فى تلقى الشرائع القانونية من الله وحده . والتحاكم إليها وحدها . والحكم بها دون سواها .. إن مدلول « الشريعة » فى الإسلام لا ينحصر فى التشريعات القانونية ، ولا حتى فى أصول الحكم ونظامه وأوضاعه . إن هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول « الشريعة » والتصور الإسلامى !

إن «شريعة الله» تعنى كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية .. وهذا يتمثل فى أصول الاعتقاد ، وأصول الحكم ، وأصول الأخلاق ، وأصول السلوك ، وأصول المعرفة أيضًا .

يتمثل فى الاعتقاد والتصور ـ بكل مقومات هذا التصور ـ تصور حقيقة الألوهية ، وحقيقة الكون ، غيبه وشهوده ، وحقيقة الحياة ، غيبها وشهودها ، وحقيقة الإنسان ، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها ، وتعامل الإنسان معها .

ويتمثل فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والأصول التى تقوم عليها ، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده .

ويتمثل فى التشريعات القانونية ، التى تنظم هذه الأوضاع . وهو ما يطلق عليه اسم «الشريعة» غالبًا بمعناها الضيق الذى لا يمثل حقيقة مدلولها فى التصور الإسلامى .

ويتمثل فى قواعد الأخلاق والسلوك ، فى القيم والموازين التى تسود المجتمع ، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث فى الحياة الاجتماعية .

ثم .. يتمثل فى «المعرفة» بكل جوانبها ، وفى أصول النشاط الفكرى والفنى جملة .

وفى هذا كله لا بد من التلقى عن الله ، كالتلقى فى الأحكام الشرعية ـ بمدلولها الضيق المتداول ـ سواء بسواء ..

والأمر فى «الحاكمية» ـ فى مدلولها المختص بالحكم والقانون ـ قد

يكون الآن مفهومًا بعد الذى سقناه بشأنه من تقريرات .

والأمر فى قواعد الأخلاق والسلوك ، وفى القيم والموازين التى تسود المجتمع ، قد يكون مفهومًا كذلك إلى حد ما ! إذ أن القيم والموازين وقواعد الأخلاق والسلوك التى تسود فى مجتمع ما ترجع مباشرة إلى التصور الاعتقادى السائد فى هذا المجتمع ، وتتلقى من ذات المصدر الذى تتلقى منه حقائق العقيدة التى يتكيف بها ذلك التصور .

أما الأمر الذى قد يكون غريبًا - حتى على قراء مثل هذه البحوث الإسلامية ! - فهو الرجوع فى شأن النشاط الفكرى والفنى إلى التصور الإسلامى وإلى مصدره الربانى .

وفى النشاط الفنى صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية باعتبار أن النشاط الفنى كله ، وهو تعبير إنسانى عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته ، وعن صورة الوجود والحياة فى نفس إنسانية .. وهذه كلها يحكمها - بل ينشئها - فى النفس المسلمة تصورها الإسلامى بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة ، وعلاقتها بباريء الكون والنفس والحياة ! وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان ، ومركزه فى الكون ، وغاية وجوده ، ووظيفته ، وقيم حياته .. وكلها متضمنة فى التصور الإسلامى ، الذى ليس هو مجرد تصور فكرى . إنما هو تصور اعتقادى حى موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث فى الكيان الإنسانى [1]

---

(١) كتاب «منهج الفن الإسلامى» لمحمد قطب .

فأما قضية النشاط الفكرى ، وضرورة رد هذا النشاط إلى التصور الإسلامى ومصدره الربانى ، تحقيقًا للعبودية الكاملة لله وحده ، فهذه هى القضية التى تقتضى منَّا بيانًا كاملاً لأنها قد تكون بالقياس إلى قُرَّاء هذا البيان ـ حتى المسلمين منهم الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله وحده ـ غريبة أو غير مطروقة !

* * *

إن المسلم لا يملك أن يتلقى فى أمر يختص بحقائق العقيدة ، أو التصور العام للوجود . أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق والسلوك ، والقيم والموازين ، أو يختص بالمبادئ والأصول فى النظام السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة التاريخ الإنسانى .. إلا من ذلك المصدر الربانى ، ولا يتلقى فى هذا كله إلا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه . ومزاولته لعقيدته فى واقع الحياة .

ولكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والصناعة ، والزراعة ، وطرق الإدارة ـ من الناحية الفنية الإدارية البحتة ـ وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتال ـ من الجانب الفنى ـ إلى آخر ما يشبه هذا النشاط .. يملك أن يتلقى فى هذا كله عن المسلم وغير المسلم .. وإن كان الأصل فى المجتمع المسلم حين يقوم ، أن يسعى لتوفير هذه الكفايات فى هذه الحقول كلها ، باعتبارها فروض كفاية . يجب أن يتخصص فيها أفراد منه . وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات ، ولم يوفر لها

الجو الذى تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج .. ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى فى هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم ، وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم ، وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم .. لأنها من الأمور الداخلة فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .. وهى لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان ، وغاية وجوده ، وحقيقة وظيفته ، ونوع ارتباطاته يالوجود من حوله ، بخالق الوجود كله . ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التى تنظم حياته أفرادًا وجماعات . ولا تتعلق بالأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التى تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع .. ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته ، أو ارتداده إلى الجاهلية !

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنسانىّ كله أفرادًا أو مجتمعات ، وهو المتعلق بالنظرة إلى «نفس» الإنسان وإلى «حركة تاريخه» ، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ، ونشأة الحياة ، ونشأة هذا الإنسان ذاته ــ من ناحية ما وراء الطبيعة ــ (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب .. إلخ) فالشأن فيه ، شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصوَل التى تنظم حياته ونشاطه ، مرتبط بالعقيدة ارتباطًا مباشرًا ، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم ، يثق فى دينه وتقواه ، ويعلم عنه أنه يتلقى فى هذا كله عن الله .. والمهم أن يرتبط هذا فى حس المسلم بعقيدته ، وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده ، أو مقتضى شهادته : أن لا إله إلا الله . وأن محمدًا رسول الله .

إنه قد يَطَّلِع على كل آثار النشاط الجاهلى . ولكن لا لِيُكَوِّن منه

تصوره ومعرفته فى هذه الشؤون كلها ، إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ! وليعرف كيف يصحح ويقوِّم هذه الانحرافات البشرية ، بردِّها إلى أصولها الصحيحة فى مقومات التصور الإسلامى ، وحقائق العقيدة الإسلامية .

إن اتجاهات « الفلسفة » بجملتها ، واتجاهات « تفسير التاريخ الإنسانى » بجملتها ، واتجاهات « علم النفس » بجملتها ـ عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها ـ ومباحث « الأخلاق » بجملتها ، واتجاهات دراسة « الأديان المقارنة » بجملتها ، واتجاهات « التفسيرات والمذاهب الاجتماعية » بجملتها ـ فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة ، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها ـ .. إن هذه الاتجاهات كلها فى الفكر الجاهلى ـ أى غير الإسلامى ـ قديمًا وحديثًا ، متأثرة تأثرًا مباشرًا بتصورات اعتقادية جاهلية ، وقائمة على هذه التصورات ، ومعظمها ـ إن لم يكن كلها ـ يتضمن فى أصوله المنهجية عداءً ظاهرًا أو خفيًا للتصور الدينى جملة ، وللتصور الإسلامى على وجه خاص !

والأمر فى هذه الألوان من النشاط الفكرى ـ والعلمى ! ـ ليس كالأمر فى علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب ، وما إليها ـ ما دامت هذه فى حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية ، دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفى فى صورة من صوره ، وذلك كتجاوز الداروينية مثلاً لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها فى علم الأحياء ، إلى محال القول ـ بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك إلاَّ الرغبة والهوى ـ

إنه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعى لتفسير نشأة الحياة وتطورها .

إن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون ، وفى المستوى الذى تبدو فيه محاولات البشر فى هذه المجالات هزيلة ومضحكة .. فضلاً عن أن الأمر يتعلق تعلقًا مباشرًا بالعقيدة ، وبالعبودية الكاملة لله وحده .

إن حكاية أن « الثقافة تراث إنسانى » لا وطن له ولا جنس ولا دين .. هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية ـ دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم ، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه ، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعًا . ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية ، التى يهمها تمييع الحواجز كلها ـ بما فى ذلك ، بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور ـ لكى ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطانى ، وفى أوله نشاطهم الربوى ، الذى ينتهى إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها ، تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود !

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك ـ فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية ـ نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامى ، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة .. قاعدة إقامة الفكر البشرى إلهًا لا يرجع إلى الله فى

ميزانه . والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكرى والواقعى الإنسانى ، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائمًا .

ويكفى أن نعلم أن الاتجاه التجريبى ، الذى قامت عليه الحضاره الصناعية الأوربية الحاضرة ، لم ينشأ ابتداء فى أوروبا ، وإنما نشأ فى الجامعات الإسلامية فى الأندلس والمشرق ، مستمدًا أصوله من التصور الإسلامى وتوجيهاته ، إلى الكون وطبيعته الواقعية ، ومدخراته وأقواته .. ثُم استقلت النهضة العلمية فى أوروبا بهذا المنهج ، واستمرت تنميه وترقيه ، بينما رُكِدَ وترك نهائيًا فى العالم الإسلامى بسبب بُعْد هذا العالم تدريجيًا عن الإسلام ، بفعل عوامل بعضها كامن فى تركيب المجتمع وبعضها يتمثل فى الهجوم عليه من العالم الصليبى والصهيونى ... ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية ، وشردت به نهائيًا بعيدًا عن الله . فى أثناء شرودها عن الكنيسة ، التى كانت تستطيل على الناس ـ بغيًا وعدوًا ـ باسم الله ! [1]

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوربى بجملته ـ شأنه شأن إنتاج الفكر الجاهلى فى جميع الأزمان فى جميع البقاع ـ شيئًا آخر . ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامى . ومعادية فى الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامى .. ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحدها . وألا يأخذ إلا من المصدر الربانى إن استطاع

---

(١) راجع فصل : «الفصام النكد» فى كتاب : المستقبل لهذا الدين .

بنفسه ، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقى ، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه .

* * *

إن حكاية فصل « العلم » عن « صاحب العلم » لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة فى نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنسانى ، والأوضاع ، والقيم ، والأخلاق ، والعادات ، وسائر ما يتعلق بنفس الإنسان ونشاطه من هذه النواحى .

إن الإسلام يتسامح فى أن يتلقى المسلم عن غير المسلم ، أو عن غير التقى من المسلمين ، فى علم الكيمياء البحتة ، أو الطبيعة ، أو الفلك ، أو الطب ، أو الصناعة ، أو الزراعة ، أو الأعمال الإدارية والكتابية .. وأمثالها . وذلك فى الحالات التى لا يجد فيها مسلمًا تقيًا يأخذ عنه فى هذا كله ، كما هو واقع من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم ، الناشئ من بُعْدِهم عن دينهم ومنهجهم وعن التصور الإسلامى لمقتضيات الخلافة فى الأرض ـ بإذن الله ـ وما يلزم لهذه الخلافة من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة .. ولكنه لا يتسامح فى أن يتلقى أصول عقيدته ، ولا مقومات تصوره ، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه ، ولا مذهب مجتمعه ، ولا نظام حكمه ، ولا منهج سياسته ، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره ... إلخ ، من مصادر غير إسلامية ، ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق فى دينه وتقواه فى شيء من هذا كله .

إن الذى يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة .

كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع فى معظم حقول المعرفة الإنسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره . فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم ـ وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك ـ وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها ، وعلى ضآلتها ، وعلى قزامتها ... وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها وادعائها كذلك ! ! ! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى ! ! !

ومع ذلك فليس الذى سبق فى هذه الفقرة رأيًا لى أبديه .. إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأى .. إنه أثقل فى ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه ، إنما هو قول الله ـ سبحانه ـ وقول نبيه صلى الله عليه وسلم .. نحكِّمه فى هذا الشأن ، ونرجع فيه إلى الله والرسول ، كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه .

يقول الله ـ سبحانه ـ عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة :

« ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفَّارًا ، حسدًا من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، إن الله على كل شىءٍ قدير » ...

[البقرة : ١٠٩] .

« ولَن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ،

ما لك من الله من ولى ولا نصير » ...

[البقرة : ١٢٠]

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » ...

[آل عمران : ١٠٠]

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبى عن جابر ـ رضى الله عنهم :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعنى » .

وحين يتحدد الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذى يقرره الله سبحانه ، يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة فى أى مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، أو التاريخ الإسلامى ، أو التوجيه فى نظام المجتمع المسلم ، أو فى سياسته أو اقتصاده ، أو يقصدون إلى خير ، أو إلى هدى ، أو إلى نور ... والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس ـ بعد تقرير الله سبحانة ـ إنما هم الغافلون !

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : إن هدى الله هو الهدى » ... المصدر الوحيد الذى يجب على المسلم الرجوع إليه فى هذه الشؤون ، فليس وراء هدى الله إلا الضلال ، وليس فى غيره هدى ، كما تفيد صيغة القصر الواردة فى النص : « قُل : إن هدى الله هو

الهدى » ... ولا سبيل إلى الشك فى مدلول هذا النص ، ولا إلى تأويله كذلك !

كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ، ويقصر اهتمامه على شؤون الحياة الدنيا ، وينص على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظنًا ، والمسلم منهى عن اتباع الظن ، وأنه لايعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فهو لا يعلم علمًا صحيحًا .

« فأعرض عمَّن تولى عن ذكرنا ، ولم يُردْ إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى » .

[النجم : ٢٩ ـ ٣٠]

« يَعْلَمُونَ ظاهرًا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » ..

[الروم : ٧]

والذى يغفل عن ذكر الله ، ولا يريد إلا الحياة الدنيا ـ وهو شأن جميع « العلماء ! » اليوم ـ لا يعلم إلا هذا الظاهر ، وليس هذا هو « العلم » الذى يثق المسلم فى صاحبه فيتلقى عنه فى كل شأنه ، إنما يجوز أن يتلقى عنه فى حدود علمه المادى البحت ، ولا يتلقى منه تفسيرًا ولا تأويلاً عامًا للحياة ، أو النفس ، أو متعلقاتها التصورية .. كما أنه ليس هو العلم الذى تشير إليه الآيات القرآنية وتثنى عليه . كقوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها فى غير مواضعها ؟ فهذا السؤال التقريرى وارد فى آية هذا نصها الكامل :

«أم من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ..

[الزمر : ٩]

فهذا القانت آناء الليل ، ساجدًا وقائمًا ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. هو هذا الذى يعلم .. وهذا هو العلم .. الذى تشير إليه الآية ، العلم الذى يهدى إلى الله وتقواه .. لا العلم الذى يفسد الفطر فتلحد فى الله !

إن العلم ليس مقصورًا على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع .. فالعلم يشتمل كل شيء ، ويتعلق بالقوانين الطبيعية .. وتسخيرها فى خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع .. ولكن العلم الذى ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذى يعنيه القرآن ويثنى على أهله .. إن هناك ارتباطًا بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك ، وعلم الأحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء . وعلم طبقات الأرض .. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية ، والقوانين الحيوية . إنها كلها تؤدى إلى الله ، حين لايستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله .. كما اتجه المنهج الأوروبى فى النهضة العلمية ـ مع الأسف ـ بسبب تلك الملابسات النكدة التى قامت فى التاريخ الأوروبى خاصة ، بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة ! ثم ترك آثاره العميقة فى مناهج الفكر الأوروبى كلها ، وفى طبيعة التفكير الأوروبى ، وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الدينى جملة ـ لا لأصل التصور الكنسى وحده ولا للكنيسة وحدها ـ فى كل ما أنتجه الفكر الأوروبى ، فى كل

حقل من حقول المعرفة ، سواء كانت فلسفة ميتافيزيقية ، أوكانت بحوثًا علمية بحتة لا علاقة لها ـ فى الظاهر ـ بالموضوع الدينى ! [1]

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربى ، ونتاج هذا الفكر فى كل حقول المعرفة ، يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الدينى جملة ، فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداءً للتصور الإسلامى خاصة ، لأنه يتعمد هذا العداء بصفة خاصة ، ويتحرى فى حالات كثيرة ـ فى خطة متعمدة ـ تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الإسلامية ، ثم تحطيم الأسس التى يقوم عليها تميز المجتمع المسلم فى كل مقوماته .

ومن ثمَّ يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربى ، وعلى نتاجه كذلك ، فى الدراسات الإسلامية .. ومن ثمَّ تجب الحيطة كذلك فى أثناء دراسة العلوم البحتة ـ التى لا بد لنا فى موقفنا الحاضر من تلقِّيها من مصادرها الغربية ـ من أية ظلال فلسفية تتعلق بها ، لأن هذه الظلال معادية فى أساسها للتصور الدينى جملة ، وللتصور الإسلامى بصفة خاصة . وأى قدر منها يكفى لتسميم الينبوع الإسلامى الصافى ...

* * *

---

(١) يراجع فصل : « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

جنسية المسلم وعقيدته

جاء الإسلام إلى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج ، يوم جاءها بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات ، ولحقيقة الجهة التى تتلقى منها هذه القيم وهذا الاعتبارات .

جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه ، وليجعل هذه السلطة هى السلطة الوحيدة التى يتلقى منها موازينه وقيمه ، كما تلقى منها وجوده وحياته ، والتى يرجع إليها بروابطه ووشائجه ، كما أنه من إرادتها صدر وإليها يعود .

جاء ليقرر أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس فى الله فإذا انبتَّت هذه الوشيجة فلا صلة ولا مودة :

« لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم وأبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ...

[المجادلة : ٢٢]

وأن هناك حزبًا واحدًا لله لا يتعدد ، وأحزابًا أخرى كلها للشيطان وللطاغوت :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل

الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ...
[النساء : ٧٦]

وأن هناك طريقًا واحدًا يصل إلى الله وكل طريق آخر لا يؤدى إليه :

« وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » ...

[الأنعام : ١٥٣]

وأن هناك نظامًا واحدًا هو النظام الإسلامى وما عداه من النظم فهو جاهلية :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون »
[المائدة : ٥٠]

وأن هناك شريعة واحدة هى شريعة الله وما عداها فهو هوى :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبِعْها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ...

[الجاثية : ١٨]

وأن هناك حقًا واحدًا لا يتعدد ، وما عداه فهو الضلال :

« فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ » ..

[يونس : ٣٢]

وأن هناك دارًا واحدة هى دار الإسلام ، تلك التى تقوم فيها الدولة المسلمة ، فتهيمن عليها شريعة الله ، وتقام فيها حدوده ، ويتولى

المسلمون فيها بعضهم بعضًا . وما عداها فهو دار حرب ، علاقة المسلم بها إما القتال ، وإما المهادنة على عهد أمان . ولكنها ليست دار إسلام ، ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين :

«إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدّين فعليكم النصر ـ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ـ والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ... »
[الأنفال : ٧٢ ـ ٧٥]

بهذه النصاعة الكاملة ، وبهذا الجزم القاطع جاء الإسلام ..جاء ليرفع الإنسان ويخلصه من وشائج الأرض والطين ، ومن وشائج اللحم والدم ـ وهى من وشائج الأرض والطين ـ فلا وطن للمسلم إلا الذى تقام فيه شريعة الله ، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط فى الله ، ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التى تجعله عضوًا فى «الأمة المسلمة» فى «دار الإسلام» ، ولا قرابة للمسلم إلا تلك التى تنبثق من العقيدة فى الله ، فتصل الوشيجة بينه وبين أهله فى الله ...

ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته ، ما لم تنعقد الآصرة الأولى فى الخالق ، فتتصل من ثم بالرحم :

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » ...

[النساء : ١]

ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة ما لم يقفا فى الصف المعادى للجبهة المسلمة ، فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى يعطينا المثل فى جلاء :

روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال : دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله بن عبد الله بن أبى قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال ما يقول أبى ؟ ـ بأبى أنت وأمى ـ قال : يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله . أنت والله الأعز وهو الأذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وأن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بوالده منى . ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا » .. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ، قال : أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظلها ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج ! ابنى يمنعنى بيتى ! يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى ! فقال : والله لا يأويه أبدًا إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخلن إلا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه فقال : «اذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه » .

فأتوه فقال : أما إذ جاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم فنعم ..

فإذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم إخوة ، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر : «إنما المؤمنون إخوة » .. على سبيل القصر والتوكيد :

«إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » ...

[الأنفال : ٧٢]

وهى ولاية تتجاوز الجيل الواحد إلى الأجيال المتعاقبة ، وتربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، برباط الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين :

«والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبُّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

[الحشر : ٩ ـ ١٠]

* * *

ويضرب الله الأمثال للمسلمين بالرهط الكريم من الأنبياء الذين سبقوهم فى موكب الإيمان الضارب فى شعاب الزمان :

«ونادى نوح ربه ، فقال : ربِّ إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك

الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عَمَلٌ غير صالح ، فلا تَسْأَلْنِ ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » ...

[هود : ٤٥ ـ ٤٧]

« وإذِ ابتلى إبراهيمَ رَبُّهُ بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إمامًا . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين » ...

[البقرة : ١٢٤]

« وإذْ قال إبراهيمُ : ربِّ اجعل هذا بلدًا آمنًا ، وارزق أهله من الثمرات .. من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. قال : ومن كفر فأُمتِّعه قليلاً ثم أَضْطَرُّهُ إلى عذاب النار وبئس المصير ...

[البقرة : ١٢٦]

ويعتزل إبراهيم أباه وأهله حين يرى منهم الإصرار على الضلال :

« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألاَّ أكون بدعاء ربى شقيًا » ...

[مريم : ٤٨]

ويحكى الله عن إبراهيم وقومه ما فيه أسوة وقدوة :

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنَّا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العدواة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده » .

[الممتحنة : ٤]

والفتية أصحاب الكهف يعتزلون أهلهم وقومهم وأرضهم ليخلصوا لله بدينهم ، ويفرُّوا إلى ربهم بعقيدتهم ، حين عز عليهم أن يجدوا لها مكانًا فى الوطن والأهل والعشيرة .

«إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعوا من دونه إلهًا ، لقد قلنا إذًا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقًا » ...

[الكهف : ١٣ ـ ١٦]

وامرأة نوح وامرأة لوط يفرق بينهما وبين زوجيهما حين تفترق العقيدة :

«ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » ..

[التحريم : ١٠]

وامرأة فرعون على الضفة الأخرى :

« وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : ربِّ ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ، ونجِّنى من فرعون وعمله ، ونجِّنى من القوم الظالمين » ...

[التحريم : ١١]

وهكذا تتعدد الأمثال فى جميع الوشائج والروابط .. وشيجة الأبوة فى قصة نوح ، ووشيجة البنوة والوطن فى قصة إبراهيم ، ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعًا فى قصة أصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية فى قصص امرأتى نوح ولوط وامرأة فرعون ..

وهكذا يمضى الموكب الكريم فى تصوره لحقيقة الروابط والوشائج .. حتى تجىء الأمة الوسط ، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب ، فتمضى على النهج الربانى للأمة المؤمنة ، وتفترق العشيرة الواحدة ، ويفترق البيت الواحد ، حين تفترق العقيدة ، وحيث تنبت الوشيجة الأولى ، ويقول الله سبحانه فى صفة المؤمنين قوله الكريم :

« لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ...

[المجادلة : ٢٢]

وحين انبتَّت وشيجة القرابة بين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين عمه أبى لهب ، وابن عمه عمرو بن هشام (أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر .. حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والأنصار ، فإذا هم أهل وإخوة ، واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب وإخوانهم : صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وسلمان الفارسى . وتوارت عصبية القبيلة ، وعصبية

الجنس ، وعصبية الأرض . وقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « دعوها فإنها منتنة » .. وقال لهم : « ليس منًّا من دعا إلى عصبية ، وليس منًّا من قاتل على عصبية ، وليس منًّا من مات على عصبية » .. فانتهى أمر هذا النتن .. نتن عصبية النسب . وماتت هذه النعرة .. نعرة الجنس ، واختفت تلك اللوثة .. لوثة القوم ، واستروح البشر أرج الآفاق العليا ، بعيدًا عن نتن اللحم والدم ، ولوثة الطين والأرض .. منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، إنما عاد وطنه هو « دار الإسلام » الدار التى تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها ، الدار التى يأوى إليها ويدافع عنها ، ويستشهد لحمايتها ومد رقعتها .. وهى « دار الإسلام » لكل من يدين بالإسلام عقيدة ويرتضى شريعته شريعة . وكذلك لكل من يرتضى شريعة الإسلام نظامًا – ولو لم يكن مسلمًا – كأصحاب الديانات الكتابية الذين يعيشون فى « دار الإسلام » .. والأرض التى لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هى « دار الحرب » بالقياس إلى المسلم ، وإلى الذمى المعاهد كذلك .. يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده ، وفيها قرابته من النسب وصهره ، وفيها أمواله ومنافعه .

وكذلك حارب محمد – صلى الله عليه وسلم – مكة وهى مسقط رأسه ، وفيها عشيرته وأهله ، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التى تركوها . فلم تصبح دار إسلام له ولأمته إلا حين دانت للإسلام وطبِّقت فيها شريعته .

* * *

هذا هو الإسلام .. هذا هو وحده .. فالإسلام ليس كلمة تقال

باللسان ، ولا ميلادًا فى أرض عليها لافتة إسلامية وعنوان إسلامى ! ولا وراثة مولد فى بيت أبواه مسلمان .

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا» .

[النساء : ٦٥]

هذا هو وحده الإسلام ، وهذه هى وحدها دار الإسلام .. لا الأرض ولا الجنس ، ولا النسب ولا الصهر ، ولا القبيلة ، ولا العشيرة .

لقد أطلق الإسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا إلى السماء ، وأطلقهم من قيد الدم .. قيد البهيمة .. ليرتفعوا فى عليين .

وطن المسلم الذى يحن إليه ويدفع عنه ليس قطعة أرض ، وجنسية المسلم التى يعرف بها ليست جنسية حكم ، وعشيرة المسلم التى يأوى إليها ويدفع عنها ليست قرابة دم ، وراية المسلم التى يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم ، وانتصار المسلم الذى يهفوا إليه ويشكر الله عليه ليس غلبة جيش . إنما هو كما قال الله عنه :

«إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا ، فسبِّح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابًا» ...

[سورة النصر]

إنه النصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات . والجهاد لنصرة دين الله وشريعته لا لأى هدف من الأهداف ، والذياد عن «دار الإسلام» بشروطها تلك لا أية دار ، والتجرد بعد هذا كله لله ، لا لمغنم

ولا لسمعة ، ولا حمية لأرض أو قوم ، أو ذود عن أهل أو ولد ، إلا لحمايتهم من الفتنة عن دين الله :

عن أبي موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» ...

وفى هذا وحده تكون الشهادة لا فى أية حرب لأى هدف غير هذا الهدف الواحد .. لله ..

وكل أرض تحارب المسلم فى عقيدته ، وتصدُّه عن دينه ، وتعطل عمل شريعته ، فهى «دار حرب» ولوكان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته .. وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته ، فهى «دار إسلام» ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ، ولا قوم ولا تجارة .

الوطن : دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله .. هذا هو معنى الوطن اللائق «بالإنسان» . والجنسية : عقيدة ومنهاج حياة . وهذه هى الآصرة اللائقة بالآدميين .

إن عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة .. عصبية جاهلية عرفتها البشرية فى فترات انحطاطها الروحى ، وسماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «منتنة» بهذا الوصف الذى يفوح منه التقزز والاشمئزاز .

ولما ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم ردَّ الله عليهم

هذه الدعوى ، ورد ميزان القيم إلى الإيمان وحده على توالى الأجيال ، وتغاير الأقوام والأجناس والأوطان :

«وقالوا : كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا . قل : بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . ونحن له عابدون » ...

[البقرة : ١٣٥ ـ ١٣٨]

فأما شعب الله المختار حقًا فهو الأمة المسلمة التى تستظل براية الله على اختلاف ما بينها من الأجناس والأقوام والألوان والأوطان :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ...

[آل عمران : ١١٠]

الأمة التى يكون من الرعيل الأول فيها أبو بكر العربى ، وبلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، وإخوانهم الكرام . والتى تتوالى أجيالها على هذا النسق الرائع .. الجنسية فيها هى العقيدة ، والوطن فيها هو دار الإسلام ، والحاكم فيها هو الله ، والدستور فيها هو القرآن .

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذى ينبغى أن يسيطر

على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله ، والذى ينبغى أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية : الشرك بالأرض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة ، تلك التى يجمعها الله سبحانه فى آية واحدة فيضعها فى كفة ، ويضع الإيمان ومقتضياته فى كفة أخرى ، ويدع للناس الخيار :

«قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربَّصوا حتى يأتى الله بأمره .. والله لا يهدى القوم الفاسقين » ...

[التوبة : ٢٤]

كذلك لا ينبغى أن تقوم فى نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك السطحية فى حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام ، وفى صفة دار الحرب ودار الإسلام .. فمن هنا يؤتى الكثير منهم فى تصوراته ويقينه .. أنه لا إسلام فى أرض لا يحكمها الإسلام ، ولا تقوم فيها شريعته ، ولا دار إسلام إلا التى يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه ، وليس وراء الإيمان إلا الكفر ، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية .. وليس بعد الحق إلا الضلال ..

نقلة بعيدة

هناك حقيقة أولية ، ينبغى أن تكون واضحة فى نفوسنا تمامًا ونحن نقدم الإسلام للناس : الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء .. هذه الحقيقة تنبثق من طبيعة الإسلام ذاته ، وتنبع من تاريخه .

إن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة ، تصور كامل ذو خصائص متميزة ، ومن ثَمَّ ينبثق منه منهج ذاتى مستقل للحياة كلها ، بكل مقوماتها وارتباطاتها ، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة .

هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديمًا وحديثًا . وقد يلتقى مع هذه التصورات فى جزئيات عرضية جانبية ؛ ولكن الأصول التى تنبثق منها هذه الجزئيات مختلفة عن سائر ما عرفته البشرية من نظائرها .

ووظيفة الإسلام الأولى هى أن ينشىء حياة إنسانية توافق هذا التصور ، وتمثله فى صورة واقعية ، وأن يقيم فى الأرض نظامًا يتبع المنهج الربانى الذى اختاره الله ، وهو يخرج هذه الأمة المسلمة لتمثله وتقوم عليه ، وهو ـ سبحانه ـ يقول :

«كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ...

[آل عمران : ١١٠]

ويقول فى صفة هذه الأمة :

« الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ...

[الحج : ٤١]

* * *

وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة فى الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة فى كل مكان .. لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا فى المستقبل .. فالجاهلية هى الجاهلية ، الجاهلية هى الانحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الإلهى فى الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهى .. الإسلام وهو الإسلام ، ووظيفته هى نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام !

الجاهلية هى عبودية الناس للناس : بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله ، كائنة ما كانت الصورة التى يتم بها هذا التشريع .. !

والإسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد !

هذه الحقيقة المنبثقة من طبيعة الإسلام ، وطبيعة دوره فى الأرض ، هى التى يجب أن نقدم بها الإسلام للناس : الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء !

إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية . لا من ناحية التصور ، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور .. فإما إسلام وإما جاهلية . وليس هنالك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية ، يقبله الإسلام ويرضاه .. فنظرة الإسلام واضحة فى أن الحق واحد لا يتعدد ، وأن ما عدا هذا الحق فهو الضلال . وهما غير قابلين للتلبس والامتزاج . وأنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية ، وإما شريعة الله ، وإما الهوى .. والآيات القرآنية فى هذا المعنى متواترة كثيرة :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ..

[المائدة : ٤٩]

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم » .

[الشورى : ١٥]

« فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتَّبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

[القصص : ٥٠]

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا ، وإن الظالمين بعضهم

أولياء بعض . والله ولى المتقين » ..

[الجاثية : ١٨ – ١٩]

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون » ..

[المائدة : ٥٠]

فهما أمران لا ثالث لهما . إما الاستجابة لله والرسول ، وإما اتباع الهوى . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية . إما الحكم بما أنزل الله كله وإما الفتنة عما أنزل الله .. وليس بعد هذا التوكيد الصريح الجازم من الله سبحانه مجال للجدال أو للمحال ..

وظيفة الإسلام إذن هى إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية ، وتولى هذه القيادة على منهجه الخاص ، المستقل الملامح ، الأصيل الخصائص .. يريد بهذه القيادة الرشيدة الخير للبشرية واليسر . الخير الذى ينشأ من رد البشرية إلى خالقها ، واليسر الذى ينشأ من التنسيق بين حركة البشرية ، وتولى هذه القيادة على منهجه الخاص ، المستقل ، ترتفع إلى المستوى الكريم الذى أراده الله لها ، وتخلص من حكم الهوى . أو كما قال ربعى بن عامر حين سأله رستم قائد الفرس : ما الذى جاء بكم ؟ فكان جوابه : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

لم يجئ الإسلام إذن ليربت على شهوات الناس الممثلة فى تصوراتهم وأنظمتهم وأوضاعهم وعاداتهم وتقاليدهم .. سواء منها ما عاصر مجىء الإسلام ، أو ما تخوض البشرية فيه الآن ، فى الشرق أو فى الغرب

سواء .. إنما جاء ليلغى هذا كله إلغاء ، وينسخه نسخًا ، ويقيم الحياة البشرية على أسسه الخاصة . جاء لينشئ الحياة إنشاء . لينشئ حياة تنبثق منه انبثاقًا ، وترتبط بمحوره ارتباطًا . وقد تشابه جزئيات منه جزئيات فى الحياة التى يعيشها الناس فى الجاهلية . ولكنها ليست هى ، وليست منها . إنما هى مجرد مصادفة هذا التشابه الظاهرى الجانبى فى الفروع . أما أصل الشجرة فهو مختلف تمامًا . تلك شجرة تطلعها حكمة الله ، وهذه شجرة تطلعها أهواء البشر :

«والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدًا» ..

[الأعراف : ٥٨]

وهذه الجاهلية خبثت قديمًا وخبثت حديثًا .. يختلف خبثها فى مظهره وشكله ، ولكنه واحد فى مغرسه وأصله .. إنه هوى البشر الجهال المغرضين ، الذين لا يملكون التخلص من جهلهم وغرضهم ، ومصلحة أفراد منهم أو طبقات أو أمم أو أجناس يغلبونها على العدل والحق والخير . حتى تجيء شريعة الله فتنسخ هذا كله ، وتشرّع للناس جميعًا تشريعًا لا يشوبه جهل البشر ، ولا يلوّثه هواهم ، ولا تميل به مصلحة فريق منهم .

ولأن هذا هو الفارق الأصيل بين طبيعة منهج الله ومناهج الناس ، فإنه يستحيل الالتقاء بينهما فى نظام واحد ، ويستحيل التوفيق بينهما فى وضع واحد . ويستحيل تلفيق منهج نصفه من هنا ونصفه من هناك . وكما أن الله لا يغفر أن يشرك به . فكذلك هو لا يقبل منهجًا مع

منهجه .. هذه كتلك سواء بسواء . لأن هذه هى تلك على وجه اليقين .

هذه الحقيقة ينبغى أن تكون من القوة والوضوح فى نفوسنا ونحن نقدم الإسلام للناس بحيث لا نتلجلج فى الإدلاء بها ولا نتلعثم ، ولا ندع الناس فى شك منها ، ولا نتركهم حتى يستيقنوا أن الإسلام حين يفيئون إليه سيبدِّل حياتهم تبديلاً .. سيبدل تصوراتهم عن الحياة كلها . كما سيبدل أوضاعهم كذلك . سيبدلها ليعطيهم خيرًا منها بما لا يقاس . سيبدلها ليرفع تصوراتهم ويرفع أوضاعهم ، ويجعلهم أقرب إلى المستوى الكريم اللائق بحياة الإنسان . ولن يبقى لهم شيئًا من أوضاع الجاهلية الهابطة التى هم فيها ، اللهم إلا الجزئيات التى يتصادف أن يكون لها من جزئيات النظام الإسلامى شبيه . وحتى هذه لن تكون هى بعينها ، لأنها ستكون مشدودة إلى أصل كبير يختلف اختلافًا بيِّنًا عن الأصل الذى هم مشدودون إليه الآن : أصل الجاهلية النكد الخبيث ! وهو فى الوقت ذاته لن يسلبهم شيئًا من المعرفة «العلمية البحتة» بل سيدفعها قوية إلى الأمام ..

يجب ألاَّ ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أى مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية ، كما أنه ليس أى نظام من أنظمة الحكم الوضعية .. بشتى أسمائها وشياتها وراياتها جميعًا .. وإنما هو الإسلام فقط ! الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل ، وأوضاعه المستقلة . الإسلام الذى يحقق للبشرية خيرًا مما تحلم به كله من وراء هذه الأوضاع . الإسلام الرفيع النظيف المتناسق الجميل الصادر مباشرة من الله العلى الكبير .

وحين ندرك حقيقة الإسلام على هذا النحو ، فإن هذا الإدراك بطبيعته سيجعلنا نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام ، فى ثقة وقوة ، وفى عطف كذلك ورحمة .. ثقة الذى يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل . وعطف الذى يرى شقوة البشر ، وهو يعرف كيف يسعدهم . ورحمة الذى يرى ضلال الناس وهو يعرف أين الهدى الذى ليس بعده هدى !

لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسسًا . ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة .. سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة .. هذه الجاهلية التى أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم .. هذه الأوضاع التى أنتم فيها خبث ، والله يريد أن يطيِّبكم .. هذه الحياة التى تحيونها دون ، والله يريد أن يرفعكم .. هذا الذى أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد ، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم .. والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم ، وسيرفعكم إلى حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التى تعيشونها ، وإلى أوضاع أخرى تحتقرون معها أوضاعكم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإلى قيم أخرى تشمئزون معها من قيمكم السائدة فى الأرض جميعًا .. وإذا كنتم أنتم ـ لشقوتكم ـ لم تروا صورة واقعية للحياة الإسلامية ، لأن أعداءكم ـ أعداء هذا الدين ـ يتكتلون للحيلولة دون قيام هذه الحياة ، ودون تجسد هذه الصورة ، فنحن قد رأيناها ـ والحمد لله ممثلة فى ضمائرنا من خلال قرآننا وشريعتنا وتاريخنا وتصورنا المبدع للمستقبل الذى لا نشك فى مجيئه !

* * *

هكذا ينبغى أن نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام . لأن هذه هى الحقيقة ، ولأن هذه هى الصورة التى خاطب الإسلام الناس بها أول مرة . سواء فى الجزيرة العربية أم فى فارس أم فى الروم . أم فى أى مكان خاطب الناس فيه .

نظر إليهم من عل ، لأن هذه هى الحقيقة . وخاطبهم بلغة الحب والعطف لأنها حقيقة كذلك فى طبيعته . وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هى طريقته .. ولم يقل لهم أبدًا : إنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة ! أو أنه يشبه نظمهم وأوضاعهم التى ألفوها .. كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم إليهم الإسلام .. مرة تحت عنوان : «ديمقراطية الإسلام» ! ومرة تحت عنوان «اشتراكية الإسلام» ! ومرة بأن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة فى عالمهم لا تحتاج من الإسلام إلا لتعديلات طفيفة !!! إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات !

كلا . إن الأمر مختلف جدًا . والانتقال من هذه الجاهلية التى تعم وجه الأرض إلى الإسلام نقلة واسعة بعيدة ، وصورة الحياة الإسلامية مغايرة تمامًا لصور الحياة الجاهلية قديمًا وحديثًا . وهذه الشقوة التى تعانيها البشرية لن يرفعها عنها تغييرات طفيفة فى جزئيات النظم والأوضاع . ولن ينجى البشر منها إلا تلك النقلة الواسعة البعيدة . النقلة من مناهج الخلق إلى منهج الخالق ، ومن نظم البشر إلى نظام رب البشر ، ومن أحكام العبيد إلى حكم رب العبيد .

هذه حقيقة . وحقيقة مثلها أن نجهر بها ونصدع ، وألا ندع الناس فى شك منها ولا لبس .

وقد يكره الناس هذا فى أول الأمر ، وقد يجفلون منه ويشفقون . ولكن الناس كذلك كرهوا مثل هذا وأشفقوا منه فى أول العهد بالدعوة إلى الإسلام . أجفلوا وآذاهم أن يحقر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصوراتهم ، ويعيب آلهتهم ، وينكر أوضاعهم ، ويعتزل عاداتهم وتقاليدهم ، ويتخذ لنفسه وللقلة المؤمنة معه أوضاعًا وقيمًا وتقاليد غير أوضاع الجاهلية وقيمها وتقاليدها .

ثم ماذا ؟ ثم فاؤوا إلى الحق الذى لم يعجبهم أول مرة . والذى أجفلوا منه :

«كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة» ..

[المدثر : ٥٠ ـ ٥١]

والذى حاربوه ودافعوه بكل ما يملكون من قوة وحيلة ، والذى عذبوا أهله عذابًا شديدًا وهم ضعاف فى مكة ؛ ثم قاتلوهم قتالاً عنيدًا وهم أقوياء فى المدينة ..

ولم تكن الدعوة فى أول عهدها فى وضع أقوى ولا أفضل منها الآن .. كانت مجهولة مستنكرة من الجاهلية ، وكانت محصورة فى شعاب مكة ، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها ، وكانت غريبة فى زمانها فى العالم كله . وكانت تحف بها امبراطوريات ضخمة عاتية تنكر كل مبادئها وأهدافها . ولكنها مع هذا كله كانت قوية ، كما هى اليوم قوية ، وكما هى غدًا قوية .. إن عناصر القوة الحقيقية كامنة فى طبيعة هذه العقيدة ذاتها . ومن ثَمَّ فهى تملك أن تعمل فى أسوأ الظروف وأشدها حرجًا . إنها تكمن فى الحق البسيط الواضح الذى تقوم عليه .

وفى تناسقها مع الفطرة التى لا تملك أن تقاوم سلطانها طويلاً ، وفى قدرتها على قيادة البشرية صعدًا فى طريق التقدم ، فى أية مرحلة كانت البشرية من التأخر أو التقدم الاقتصادى والاجتماعى والعلمى والعقلى .. كما أنها تكمن فى صراحتها هذه وهى تواجه الجاهلية بكل قواها المادية فلا تخرم حرفًا واحدًا من أصولها ، ولا تربت على شهوات الجاهلية ، ولا تتدسس إليها تدسسًا . إنما تصدع بالحق صدعًا مع إشعار الناس بأنها خير ورحمة وبركة ..

والله الذى خلق البشر يعلم طبيعة تكوينهم ومداخل قلوبهم ويعلم كيف تستجيب حين تصدع بالحق صدعًا . فى صراحة وقوة. وبلا تلعثم ولا وصوصة !

إن النفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة إلى حياة . وذلك قد يكون أيسر عليها من التعديلات الجزئية فى أحيان كثيرة .. والانتقال الكامل من نظام حياة إلى نظام آخر أعلى منه وأكمل وأنظف ، انتقال له ما يبرره فى منطق النفس .. ولكن ما الذى يبرر الانتقال من نظام الجاهلية إلى نظام الإسلام ، إذا كان النظام الإسلامى لا يزيد إلا تغييرًا طفيفًا هنا ، وتعديلاً طفيفًا هناك ؟ إن البقاء على النظام المألوف أقرب إلى المنطق . لأنه على الأقل نظام قائم ، قابل للإصلاح والتعديل ، فلا ضرورة لطرحه ، والانتقال إلى نظام غير قائم ولا مطبق ، ما دام أنه شبيه به فى معظم خصائصه !

* * *

كذلك نجد بعض الذين يتحدثون عن الإسلام يقدمونه للناس كأنه

متهم يحاولون هم دفع التهمة عنه ! ومن بين ما يدفعون به أن الأنظمة الحاضرة تفعل كذا وكذا مما تعيب على الإسلام مثله ، وأن الإسلام لم يصنع شيئًا ـ فى هذه الأمور ـ إلا ما تصنعه « الحضارات » الحديثة بعد ألف وأربعمئة عام !

وهان ذلك دفاعًا ! وساء ذلك دفاعًا !

إن الإسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية والتصرفات النكدة التى تنبعث منها . وهذه « الحضارات » التى تبهر الكثيرين وتهزم أرواحهم ليست سوى نظم جاهلية فى صميمها . وهى نظم معيبة مهلهلة هابطة حين تقاس إلى الإسلام .. ولا عبرة بأن حال أهلها بخير من حال السكان فى ما يسمى الوطن الإسلامى أو « العالم الإسلامى » ! فهؤلاء صاروا إلى هذا البؤس بتركهم للإسلام لا لأنهم مسلمون .. وحجة الإسلام التى يدلى بها للناس : إنه خير منها بما لا يقاس ، وإنه جاء ليغيّرها لا ليقرّها ، وليرفع البشرية عن وهدتها لا ليبارك تمرغها فى هذا الوحل الذى يبدو فى ثوب « الحضارة » ..

فلا تبلغ بنا الهزيمة أن نتلمس للإسلام مشابهات فى بعض الأنظمة القائمة ، وفى بعض المذاهب القائمة ، وفى بعض الأفكار القائمة . فنحن نرفض هذه الأنظمة فى الشرق أو فى الغرب سواء .. إننا نرفضها كلها لأنها منحطة ومتخلفة بالقياس إلى ما يريد الإسلام أن يبلغ بالبشرية إليه .

وحين نخاطب الناس بهذه الحقيقة ، ونقدم لهم القاعدة العقيدية للتصور الإسلامى الشامل ، يكون لديهم فى أعماق فطرتهم ما يبرر

الانتقال من تصور إلى تصور ، ومن وضع إلى وضع . ولكننا لا نخاطبهم بحجة مقنعة حين نقول لهم : تعالوا من نظام قائم فعلاً إلى نظام آخر غير مطبق ، لا يغير فى نظامكم القائم إلا قليلاً . وحجته إليكم انكم تفعلون فى هذا الأمر وذاك مثلما يفعل هو ، ولا يكلفكم إلا تغيير القليل من عاداتكم وأوضاعكم وشهواتكم ، وسيبقى لكم كل ما تحرصون عليها منها ولا يمسه مسًا خفيفًا ! !

هذا الذى يبدو سهلا فى ظاهره ، ليس مغريًا فى طبيعته ، فضلا على أنه ليس هو الحقيقة .. فالحقيقة أن الإسلام يبدل التصورات والمشاعر ، كما يبدل النظم والأوضاع ، كما يبدل الشرائع والقوانين تبديلاً أساسياً لا يمت بصلة إلى قاعدة الحياة الجاهلية ، التى تحياها البشرية .. ويكفى انه ينقلهم جملة وتفصيلاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ..

« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ..

« ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ..

والمسألة فى حقيقتها هى مسألة كفر وإيمان . مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام . وهذا ما ينبغى أن يكون واضحًا .. إن الناس ليسوا مسلمين ــ كما يدّعون ــ وهم يحيون حياة الجاهلية . وإذا كان فيهم من يحب أن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين ، فيعتقد أن الإسلام يمكن أن يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك . ولكن انخداعه أو خداعه لا يغير من حقيقة الواقع شيئًا .. ليس هذا إسلامًا ، وليس هؤلاء مسلمين . والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد .

ونحن لا ندعو الناس إلى الإسلام لننال منهم أجرًا . ولا نريد علوًا فى الأرض ولا فسادًا . ولا نريد شيئًا خاصًا لأنفسنا إطلاقًا ، وحسابنا وأجرنا ليس على الناس . إنما نحن ندعو الناس إلى الإسلام لأننا نحبهم ونريد لهم الخير .. مهما آذونا .. لأن هذه هى طبيعة الداعية إلى الإسلام ، وهذه هى دوافعه .. ومن ثَمَّ يجب أن يعلموا منا حقيقة الإسلام ، وحقيقة التكاليف التى سيطلبها إليهم . فى مقابل الخير العميق الذى يحمله لهم . كما يجب أن يعرفوا رأينا فى حقيقة ما هم عليه من الجاهلية .. إنها الجاهلية وليست فى شىء من الإسلام . إنها «الهوى» ما دام أنها ليست هى «الشريعة» . إنها «الضلال» ما دام أنها ليست هى الحق .. فماذا بعد الحق إلا الضلال !

* * *

وليس فى إسلامنا ما نخجل منه ، وما نضطر للدفاع عنه ، وليس فيه ما نتدسس به للناس تدسسًا ، أو ما نتلعثم فى الجهر به على حقيقته .. إن الهزيمة الروحية أمام الغرب وأمام الشرق وأمام أوضاع الجاهلية هنا وهناك هى التى تجعل بعض الناس .. «المسلمين» .. يتلمس للإسلام موافقات جزئية من النظم البشرية ، أو يتلمس من أعمال «الحضارة» الجاهلية ما يسند به أعمال الإسلام وقضاءه فى بعض الأمور ..

إنه إذا كان هناك من يحتاج للدفاع والتبرير والاعتذار فليس هو الذى يقدم الإسلام للناس . وإنما هو ذاك الذى يحيا فى هذه الجاهلية المهلهلة المليئة بالمتناقضات وبالنقائص والعيوب ، ويريد أن يتلمس

المبررات للجاهلية . وهؤلاء هم الذين يهاجمون الإسلام ويلجئون بعض محبيه الذين يجهلون حقيقته إلى الدفاع عنه ، كأنه متهم مضطر للدفاع عن نفسه فى قفص الاتهام !

بعض هؤلاء كانوا يواجهوننا ـ نحن القلائل المنتسبين إلى الإسلام ـ فى أمريكا فى السنوات التى قضيتها هناك ـ وكان بعضنا يتخذ موقف الدفاع والتبرير .. وكنت على العكس أتخذ موقف المهاجم للجاهلية الغربية .. سواء فى معتقداتها الدينية المهلهلة . أو فى أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية المؤذية .. هذه التصورات عن الأقانيم وعن الخطيئة وعن الفداء ، وهى لا تستقيم فى عقل ولا ضمير .. وهذه الرأسمالية باحتكارها ورباها وما فيها من بشاعة كالحة .. وهذه الفردية الأثرة التى ينعدم معها التكافل إلا تحت مطارق القانون .. وهذا التصور المادى التافه الجاف للحياة .. وحرية البهائم التى يسمونها «حرية الاختلاط» .. وسوق الرقيق التى يسمونها «حرية المرأة» .. والسخف والحرج والتكلف المضاد لواقع الحياة فى نظم الزواج والطلاق ، والتفريق العنصرى الحادّ الخبيث .. ثم .. ما فى الإسلام من منطق وسمو وإنسانية وبشاشة ، وتطلع إلى آفاق تطلع البشرية دونها ولا تبلغها . ومن مواجهة الواقع فى الوقت ذاته ومعالجته معالجة تقوم على قواعد الفطرة الإنسانية السليمة .

وكانت هذه حقائق نواجهها فى واقع الحياة الغربية .. وهى حقائق كانت تخجل أصحابها حين تعرض فى ضوء الإسلام .. ولكن ناسًا ـ يدّعون الإسلام ـ ينهزمون أمام ذلك النتن الذى تعيش فيه الجاهلية ، حتى ليتلمسون للإسلام مشابهات فى هذا الركاب المضطرب البائس فى

الغرب . وفى تلك الشناعة المادية البشعة فى الشرق أيضًا !

* * *

ولست فى حاجة بعد هذا إلى أن أقول : إننا نحن الذين نقدم الإسلام للناس . ليس لنا أن نجارى الجاهلية فى شيء من تصوراتها ، ولا فى شيء من أوضاعها ، ولا فى شيء من تقاليدها . مهما يشتد ضغطها علينا .

إن وظيفتنا الأولى هى احلال التصورات الإسلامية والتقاليد الإسلامية فى مكان هذه الجاهلية . ولن يتحقق هذا بمجاراة الجاهلية والسير معها خطوات فى أول الطريق ، كما قد يخيل إلى البعض منا .. إن هذا معناه إعلان الهزيمة منذ أول الطريق ..

إن ضغط التصورات الاجتماعية السائدة ، والتقاليد الاجتماعية الشائعة ، ضغط ساحق عنيف ، وبخاصة فى دنيا المرأة . والمرأة المسلمة تواجه فى هذه الجاهلية ضغطًا قاسيًا مشؤومًا حقًا .. ولكن لا بد مما ليس منه بد . لا بد أن نثبت أولاً ، ولا بد أن نستعلى ثانيًا ، ولا بد أن نُرِى الجاهلية حقيقة الدرك الذى هى فيه بالقياس إلى الآفاق العليا المشرفة للحياة الإسلامية التى نريدها .

ولن يكون هذا بأن نجارى الجاهلية فى بعض الخطوات ، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن وننزوى عنها وننعزل .. كلا ، إنما هى المخالطة مع التميز ، والأخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق فى مودة ، والاستعلاء بالإيمان فى تواضع . والامتلاء بعد هذا كله بالحقيقة الواقعة . وهى أننا نعيش فى وسط جاهلية ، وأننا أهدى طريقًا من

هذه الجاهلية ، وإنها نقلة بعيدة واسعة ، هذه النقلة من الجاهلية إلى الإسلام ، وإنها هوة فاصلة لا يقام فوقها معبر للالتقاء فى منتصف الطريق ، ولكن لينتقل عليه أهل الجاهلية إلى الإسلام ، سواء كانوا ممن يعيشون فيما يسمى الوطن الإسلامى ، ويزعمون أنهم مسلمون ، أو كانوا يعيشون فى غير الوطن «الإسلامى» ، وليخرجوا من الظلمات إلى النور ، ولينجوا من هذه الشقوة التى هم فيها ، وينعموا بالخير الذى ذقناه نحن الذين عرفنا الإسلام وحاولنا أن نعيش به .. وإلا فلنقل ما أمر الله سبحانه الرسول صلى الله عليه وسَلم أن يقوله :

«لكم دينكم ولى دين» ...

[الكافرون : ٦]

* * *

استعلاء الإيمان

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ..
[آل عمران : ١٣٩]

أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة فى القتال .. ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة ، بكل ملابساتها الكثيرة .

إنه يمثل الحالة الدائمة التى ينبغى أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء .

إنه يمثل حالة الاستعلاء التى يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شئ ، وكل وضع ، وكل قيمة ، وكل أحد ، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان .

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان . وعلى قيم الأرض التى لم تنبثق من أصل الإيمان . وعلى تقاليد الأرض التى لم يصغها الإيمان ، وعلى قوانين الأرض التى لم يشرعها الإيمان ، وعلى أوضاع الأرض التى لم ينشئها الإيمان .

الاستعلاء .. مع ضعف القوة ، وقلة العدد ، وفقر المال ، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء .

الاستعلاء الذى لا يتهاوى أمام قوة باغية ، ولا عرف اجتماعى ولا تشريع باطل ، ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان .

وليست حالة التماسك والثبات فى الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التى يشملها هذه التوجيه الإلهى العظيم .

* * *

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة ، ولا نخوة دافعة ، ولا حماسة فائرة ، إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز فى طبيعة الوجود . الحق الباقى وراء منطق القوة ، وتصور البيئة ، واصطلاح المجتمع ، وتعارف الناس ، لأنه موصول بالله الحى الذى لا يموت .

إن للمجتمع منطقة السائد وعرفه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل .. على من ليس يحتمى منه بركن ركين ، وعلى من يواجهه بلا سند متين .. وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذى يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر فى ظلها تلك التصورات والأفكار ، والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى .

والذى يقف فى وجه المجتمع ، ومنطقه السائد ، وعرفه العام ، وقيمه واعتباراته ، وأفكاره وتصوراته ، وانحرافاته ونزواته .. يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ، ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس ، وأثبت من الأرض ، وأكرم من الحياة .

والله لا يترك المؤمن وحيدًا يواجه الضغط ، وينوء به الثقل ، ويهدّه

الوهن والحزن ، ومن ثم يجيء هذا التوجيه :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

[آل عمران : ١٣٩]

يجيء هذا التوجيه. ليواجه الوهن كما يواجه الحزن.هما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس فى هذا المقام .. يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات ، الاستعلاء الذى ينظر من عل إلى القوى الطاغية ، والقيم السائدة ، والتصورات الشائعة ، والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات ، والجماهير المتجمعة على الضلال .

إن المؤمن هو الأعلى .. الأعلى سندًا ومصدرًا .. فما تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة فى الأرض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو من الله يتلقى ، وإلى الله يرجع ، وعلى منهجه يسير ؟

وهو الأعلى إدراكًا وتصورًا لحقيقة الوجود .. فالإيمان بالله الواحد فى هذه الصورة التى جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى . وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب ، سواء ما جاءت به الفلسفات .الكبرى قديمًا وحديثًا ، وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة ، وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة .. حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة ، إلى ذلك الركام وهذه التعسفات ، تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط . وما من شك ان الذين يعرفون هذه

المعرفة هم الأعلون على كل من هناك[1] .

وهو الأعلى تصورًا للقيم والموازين التى توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص . فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله ـ بصفاته كما جاء بها الإسلام ، ومن المعرفة بحقائق القيم فى الوجود الكبير لا فى ميدان الأرض الصغير . هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصورًا للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة فى أيدى البشر ، الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم . ولا يثبتون على ميزان واحد فى الجيل الواحد . بل فى الأمة الواحدة . بل فى النفس الواحدة من حين إلى حين .

وهو الأعلى ضميرًا وشعورًا ، وخلقًا وسلوكًا .. فإن عقيدته فى الله ذى الأسماء الحسنى والصفات المثلى ، هى بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى ، والعمل الصالح والخلافة الراشدة . فضلاً على إيحاء العقيدة عن الجزاء فى الآخرة . الجزاء الذى تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعًا . ويطمئن إليه ضمير المؤمن ـ ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب .

وهو الأعلى شريعة ونظامًا . وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديمًا وحديثًا ، ويقيسه إلى شريعته ونظامه ، فسيراه كله أشبه شئ بمحاولات الأطفال وخبط العميان ، إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل . وسينظر إلى البشرية الضالة من عل فى عطف وإشفاق

---

(١) يراجع فصل «تيه وركام» فى كتاب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته .

على بؤسها وشقوتها ، ولا يجد فى نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال .

* * *

وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء ، والقوى المتنفجة ، والاعتبارات التى كانت تتعبد الناس فى الجاهلية .. والجاهلية ليست فترة من الزمان ، إنما هى حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الإسلام ، فى الماضى والحاضر والمستقبل على السواء ..

هكذا وقف المغيرة ابن شعبة أمام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها فى معسكر رستم قائد الفرس المشهور :

«عن أبى عثمان النهدى قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة ، فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه ، واستأذنوا رستم فى اجازته ، ولم يغيروا شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم فى زيهم ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة (والغلوة مسافة رمية سَهم وتقدر بثلاثمائة أو اربعمائة خطوة) لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى يجلس على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه[1] ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قومًا أسفه منكم . انا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضًا ، إلا أن يكون محاربًا لصاحبه ؛ فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . وكان أحسن من الذى صنعتم

---

(١) مغثوه : صرعوه .

أن تخبرونى ان بعضكم أرباب بعض ، وان هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى . اليوم علمت ان أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

كذلك وقف ربعى بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية :

« أرسل سعد بن أبى وقاص قبل القادسية ربعى بن عامر رسولاً إلى رستم ، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير[1] ، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة ، وعليه تاجه . وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقدْ جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك فقال : انى لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

---

(١) النمارق : الوسائد والحشايا للاتكاء . والزرابى : البسط المخملة .

وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى . وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمنًا . ويستيقن أنها فترة وتمضى ، وإن للإيمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية فإنه لا يحنى لها رأسًا . إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة ، وغالبه يغادرها إلى النار . وشتان شتان . وهو يسمع نداء ربه الكريم :

« لا يغرّنّك تقلّب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » ...
[آل عمران : ١٩٦ ـ ١٩٨]

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وبأن هؤلاء كلهم فى الموقف الدون . وينظر إليهم من عل فى كرامة واعتزاز ، وفى رحمة كذلك وعطف ، ورغبة فى هدايتهم إلى الخير الذى معه ، ورفعهم إلى الأفق الذى يعيش فيه .

ويضج الباطل ويصخب ، ويرفع صوته وينفش ريشه ، وتحيط به الهالات المصطنعة التى تغشى على الأبصار والبصائر ، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم ، وفجر كالح لئيم .. وينظر المؤمن من عل إلى الباطل المنتفش ، وإلى الجموع المخدوعة ، فلا يهن ولا يحزن ، ولا ينقص إصراره على الحق الذى معه ، وثباته على النهج الذى يتبعه ، ولا تضعف رغبته كذلك فى هداية الضالين والمخدوعين .

ويغرق المجتمع فى شهواته الهابطة ، ويمضى مع نزواته الخليعة ، ويلصق بالوحل والطين ، حاسبًا أنه يستمتع وينطلق من الاغلال والقيود . وتعز فى مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال ، ولا يبقى إلا المشروع الآسن ، وإلا الوحل والطين .. وينظر المؤمن من عل إلى الغارقين فى الوحل اللاصقين بالطين . وهو مفردٌ وحيد ، فلا يهن ولا يحزن ، ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف والطاهر ، وينغمس فى الحمأة ، وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين .

ويقف المؤمن قابضًا على دينه كالقابض على الجمر فى المجتمع الشارد عن الدين ، وعن الفضيلة ، وعن القيم العليا ، وعن الاهتمامات النبيلة ، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل .. ويقف الآخرون هازئين بوقفته ، ساخرين من تصوراته ، ضاحكين من قيمه .. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين ، وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه فى موكب الإيمان العريق الوضئ ، فى الطريق اللاحب الطويل .. نوح عليه السلام ..

«إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » ...

[هود : ٣٨]

وهو يرى نهاية الموكب الوضىء . ونهاية القافلة البائسة فى قوله تعالى :

«إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ... وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون ـ وما أرسلوا عليهم حافظين ـ فاليوم الذين

آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون ، هل ثوّب الكفار ماكانوا يفعلون ! » .. ؟

[المطففين : ٢٩ ــ ٣٦]

وقديمًا قص علينا القرآن الكريم قوله الكافرين للمؤمنين :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا ؟ » ..

[مريم : ٧٣]

أى الفريقين ؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ؟ أم الفقراء الذين يلتفون حوله ؟ أى الفريقين ؟ النضر بن الحارث ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب ؟ أفلو كان ما يدعو اليه محمد خيرًا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر ، الذين لا سلطان لهم فى قريش ولا خطر ، وهم يجتمعون فى بيت متواضع كدار الأرقم ، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة ، والمجد والجاه والسلطان ؟!

إنه منطق الأرض ، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا فى كل زمان ومكان . وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء عاطلة من عوامل الإغراء ، لا قربى من حاكم ، ولا اعتزاز بسلطان ، ولا هتاف بلذة ، ولا دغدغة لغريزة . وإنما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد .. ليقبل عليها من يقبل ، وهو على يقين من نفسه أنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ، ولينصرف عنها من يبتغى المطامع والمنافع ، ومن

يشتهى الزينة والابهة ، ومن يطلب المال والمتاع ، ومن يقيم لاعتبارات الناس وزنًا حين تخف فى ميزان الله .

إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس ، إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه .. إنه لا يستمدها من شهوات الخلق حتى يتأرجح مع شهوات الخلق ، إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذى لا يتأرجح ولا يميل .. إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفانى المحدود ، إنما تنبثق فى ضميره من ينابيع الوجود .. فأنّى يجد فى نفسه وهنًا أو يجد فى قلبه حزنًا . وهو موصول برب الناس وميزان الحق وينابيع الوجود ؟

إنه على الحق .. فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وليكن للضلال سلطانه ، وليكن له هيله وهيلمانه ، ولتكن معه جموعه وجماهيره .. إن هذا لا يغير من الحق شيئًا ، إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال ، ولن يختار مؤمن الضلال على الحق ـ وهو مؤمن ـ ولن يعدل بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والأحوال ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » .

[آل عمران : ٨ ـ ٩]

هـذا هو الطريق

«والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قتل أصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شئ شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير . ان بطش ربك لشديد . انه هو يبدئ ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد ...»

إن قصة أصحاب الأخدود ـ كما وردت فى سورة البروج ـ حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل . فالقرآن بإيرادها فى هذا الأسلوب مع مقدمتها والتعقيبات عليها ، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها .. كان يخط بها خطوطًا عميقة فى تصور طبيعة الدعوة إلى الله ، ودور البشر فيها ، واحتمالاتها المتوقعة فى مجالها الواسع ـ وهو أوسع رقعة من الأرض ، وأبعد مدى من الحياة الدنيا ـ وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق ، ويعدُّ نفوسهم لتلقى أى من هذه الاحتمالات التى يجرى بها القدر المرسوم ، وفق الحكمة المكنونة فى غيب الله المستور .

إنها قصة فئة آمنت بربها ، واستعلنت حقيقة إيمانها . ثم تعرضت

للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق « الإنسان » فى حرية الاعتقاد بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد ، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها ، ويتلهون بمنظرها فى أثناء التعذيب بالحريق !

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة ، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهى تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة ، فلم يستذلها حب البقاء وهى تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة ، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعًا ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

وفى مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيِّرة الرفيعة الكريمة كانت هناك جبلات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة . وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار . يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون . جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار ، والأناسى الكرام يتحولون وقودًا وترابًا . وكلما ألقى فتى أو فتاة ، صبية أو عجوز ، طفل أو شيخ ، من المؤمنين الخيرين الكرام فى النار ، ارتفعت النشوة الخسيسة فى نفوس الطغاة ، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذى انتكست فيه جبلات الطغاة وارتكست فى هذه الحمأة ، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف ، بهذه الخساسة التى لم يرتكس فيها وحش قط ، فالوحش يفترس ليقتات ، لا ليلتذ آلام الفريسة فى لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذى ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامى الرفيع ، الذى تشرف به البشرية فى جميع الأجيال والعصور .

فى حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان . وإن هذا الإيمان الذى بلغ تلك الذروة العالية ، فى نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية .. لم يكن له وزن ولا حساب فى المعركة التى دارت بين الإيمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التى وردت فى هذا الحادث ، كما لا تذكر النصوص القرآنية ، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة فى الأرض بجريمتهم البشعة ، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط . أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر .

ففى حساب الأرض تبدوا هذه الخاتمة اسيفة أليمة !

أفهكذا ينتهى الأمر ، وتذهب الفئة المؤمنة التى ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة فى الأخدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية ، التى ارتكست إلى هذه الحمأة ، ناجية ؟

حساب الأرض يحيك فى الصدر شئ أمام هذه الخاتمة الأسيفة !

ولكن القرآن يعلِّم المؤمنين شيئًا آخر ، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ، ويبصرهم بطبيعة القيم التى يزنون بها ، وبمجال المعركة التى يخوضونها .

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان ..

ليست هى القيمة الكبرى فى الميزان .. وليست هى السلعة التى تقرر حساب الربح والخسارة . والنصر ليس مقصورًا على الغلبة الظاهرة . فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

إن القيمة الكبرى فى ميزان الله هى قيمة العقيدة ، وإن السلعة الرائجة فى سوق الله هى سلعة الإيمان . وإن النصر فى أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار العقيدة على الألم ، وانتصار الإيمان على الفتنة .. وفى هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم ، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة ، وانتصرت على الفتنة انتصارًا يشرف الجنس البشرى كله فى جميع الأعصار .. وهذا هو الانتصار ..

إن الناس جميعًا يموتون ، وتختلف الأسباب . ولكن الناس جميعًا لا ينتصرون هذا الانتصار ، ولا يرتفعون هذا الارتفاع . ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق .. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس فى الموت ، وتنفرد دون الناس فى المجد ، المجد فى الملأ الأعلى ، وفى دنيا الناس أيضاً . إذا نحن وضعنا فى الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال !

لقد كان فى استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟

إنه معنى كريم جدًا ، ومعنى كبير جدًا ، هذا الذى ربحوه وهم بعد فى

الأرض ، ربحوه وهم يجدون مس النار ، فتحترق أجسادهم الفانية ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار !

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها . وليس هو الحياة الدنيا وحدها . وشهود المعركة ليسوا هم الناس فى جيل من الأجيال . إن الملأ الأعلى يشارك فى احداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها ، ويزنها بميزان غير ميزان الأرض فى جيل من أجيالها ، وغير ميزان الأرض فى أجيالها جميعا . والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس .. وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح فى أى ميزان من رأى أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة . وهى المجال الأصيل الذى يلحق به مجال الأرض ، ولا ينفصل عنه . لا فى الحقيقة الواقعة . ولا فى حس المؤمن بهذه الحقيقة .

فالمعركة إذن لم تنته ، وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد ، والحكم عليها بالجزء الذى عرض منها على الأرض حكم غير صحيح ، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد .

* * *

النظرة الأولى هى النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التى تعنّ للانسان العجول . والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هى التى يروض القرآن المؤمنين عليها . لأنها تمثل الحقيقة التى يقوم عليها التصور الإيمانى الصحيح .

ومن ثم كان وعد الله للمؤمنين جزاء على الإيمان والطاعة . والصبر

على الابتلاء ، والانتصار على فتن الحياة .. هو طمأنينة القلب :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . الا بذكر الله تطمئن القلوب » ...

[الرعد : ٢٨]

وهو الرضوان والود من الرحمن :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا »
[مريم : ٩٦]

وهو الذكر فى الملأ الأعلى :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسمّوه بيت الحمد » ...
[أخرجه الترمذى]

وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى . فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه . فإن اقترب الى شبراً اقتربت اليه ذراعًا ، وان اقترب إلىّ ذراعًا اقتربت منه باعًا ، وان أتانى مشيًا أتيته هرولة » .

[أخرجه الشيخان]

وهو اشتغال الملأ الأعلى بأمر المؤمنين فى الأرض :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً . فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ... »

[غافر : ٧]

وهو الحياة عند الله للشهداء :

« ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين .. »

[آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١]

كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين فى الآخرة والاملاء لهم فى الأرض والامهال إلى حين .. وان كان أحيانًا قد أخذ بعضهم فى الدنيا .. ولكن التركيز كله على الآخرة فى الجزء الأخير :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ... »

[آل عمران : ١٩٦ ـ ١٩٧]

« ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون . إنما يؤخِّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وافئدتهم هواء » ..

[إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٣]

«فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون .. »

[المعارج : ٤٢ – ٤٤]

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى ، واتصلت الدنيا بالآخرة ، ولم تعد الأرض وحدها هى مجال المعركة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والإيمان والطغيان . ولم تعد الحياة الدنيا هى خاتمة المطاف . ولا موعد الفصل فى هذا الصراع .. كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان ، لم تعد هى القيمة العليا فى الميزان .

انفسح المجال فى المكان ، وانفسح المجال فى الزمان ، وانفسح المجال فى القيم والموازين ، واتسعت آفاق النفس المؤمنة ، وكبرت اهتماماتها ، فصغرت الأرض وما عليها ، والحياة الدنيا وما يتعلق بها ، وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات ، وكانت قصة أصحاب الأخدود فى القمة فى إنشاء هذا التصور الإيمانى الواسع الشامل الكبير الكريم .

* * *

هنالك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج . حول طبيعة الدعوة إلى الله ، وموقف الداعية أمام كل احتمال .

لقد شهدت تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نهايات فى الأرض مختلفة للدعوات ..

شهد مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم شعيب ، وقوم لوط

ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد ، مجرد النجاة . ولم يذكر القرآن للناجين دورًا بعد ذلك فى الأرض والحياة . وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحيانًا أن يعجِّل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب فى الدنيا ، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك .

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده ، ونجاة موسى وقومه ، مع التمكين للقوم فى الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا فى تاريخهم . وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة . وإلى إقامة دين الله فى الأرض منهجًا للحياة شاملاً .. وهذا نموذج غير النماذج الأولى .

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتصار المؤمنين انتصارًا كاملاً . مع انتصار العقيدة فى نفوسهم انتصارًا عجيبًا . وتم للمرة الوحيدة فى تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمنًا على الحياة فى صورة لم تعرفها البشرية قط ، من قبل ولا من بعد .

وشهد ـ كما رأينا ـ نموذج أصحاب الأخدود ..

وشهد نماذج أخرى أقل ظهورًا فى سجل التاريخ الإيمانى فى القديم والحديث . وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التى حفظها على مدار القرون .

ولم يكن بدّ من النموذج الذى يمثله حادث الأخدود ، إلى جانب النماذج الأخرى . القريب منها والبعيد ..

لم يكن بد من هذا النموذج الذى لا ينجو فيه المؤمنون ، ولا يؤخذ فيه

الكافرون ! ذلك ليستقر فى حس المؤمنين ـ أصحاب دعوة الله ـ أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية فى طريقهم إلى الله . وأن ليس لهم من الأمر شىء . إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله !

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم ، ثم يذهبوا ، وواجبهم أن يختاروا الله ، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة ، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله فى العمل والنية . ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم ، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء . وينتهى بهم إلى نهاية من تلك النهايات التى عرفها تاريخ الإيمان ، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه .

إنهم أجراء عند الله . أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا ، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أى مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير !

وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة فى القلب ، ورفعة فى الشعور ، وجمالاً فى التصور ، وانطلاقًا من الأوهاق والجواذب ، وتحررًا من الخوف والقلق ، فى كل حال من الأحوال .

وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء فى الملأ الأعلى وذكرًا وكرامة ، وهم بعد فى هذه الأرض الصغيرة .

ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى فى الآخرة حسابًا يسيرًا ونعيمًا كبيرًا .

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعًا . رضوان الله ، وأنهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستارًا لقدرته ، يفعل بهم فى الأرض ما يشاء .

* * *

وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين فى الصدر الأول إلى هذا التطور ، الذى أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم . فاخرجوا أنفسهم من الأمر البتة ، وعملوا أجراء عند صاحب الأمر ورضوا خيرة الله على أى وضع وعلى أى حال .

وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية ، وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة ، وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء فى الدنيا والآخرة سواء .

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى عمارًا وأمه وأباه ـ رضى الله عنهم ـ يعذبون العذاب الشديد فى مكة ، فما يزيد على أن يقول : « صبرا آل ياسر . موعدكم الجنة » ..

وعن خبّاب بن الارتّ ـ رضى الله عنه ـ قال : شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد برده فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ أو تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين . ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه . ما يبعده ذلك عن دينه . والله ليتممن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » ..

[أخرجه البخارى]

* * *

إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال ، ومدبر هذا الكون

كله ، المطلع على أوله وآخره ، المنسق لأحداثه وروابطه . هو الذى يعرف الحكمة المكنونة فى غيبه المستور ، الحكمة التى تتفق مع مشيئته فى خط السير الطويل .

وفى بعض الأحيان يكشف لنا ـ بعد أجيال وقرون ـ عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته ، ولعلهم كانوا يسألون لماذا ؟ لماذا يارب يقع هذا ؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذى يتوقاه المؤمن . لأنه يعرف ابتداء أن هناك حكمة وراء كل قدر ، ولأن سعة المجال فى تصوره ، وبعد المدى فى الزمان والمكان والقيم والموازين تغنيه عن التفكير ابتداء فى مثل هذا السؤال . فيسير مع دورة القدر فى استسلام واطمئنان ..

لقد كان القرآن ينشىء قلوبًا يعدها لحمل الأمانة ، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع ـ وهى تبذل كل شىء ، وتحتمل كل شىء ـ إلى شىء فى هذه الأرض ، ولا تنظر إلا إلى الآخرة ، ولا ترجو إلا رضوان الله ، قلوبًا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها فى نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت . بلا جزاء فى هذه الأرض قريب ، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة ، وغلبة الإسلام وظهور المسلمين ، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب ، التى تعلم أن ليس أمامها فى رحلة الأرض إلا أن تعطى بلا مقابل ـ أى مقابل ـ وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدًا للفصل بين الحق والباطل . حتى إذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاها النصر فى الأرض ،

وائتمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهى وهى أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشىء من المغنم فى الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع إلى شىء من المغنم فى الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقًا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه

وكل الآيات التى ذكر فيها النصر ، وذكر فيها المغانم ، وذكر فيها أخذ المشركين فى الأرض بأيدى المؤمنين نزلت فى المدينة .. بعد ذلك .. وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية فى الحياة الإنسانية ، تقرره فى صورة عملية محددة تراها الأجيال .. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام ، إنما كان قدرًا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله ، فى كل أرض وفى كل جيل . فهى كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش ، وأن تثبِّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته ، كيفما كانت هذه النهاية . ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون . فلا يتلفتون فى أثناء الطريق الدامى المفروش بالجماجم والأشلاء ، وبالعرق والدماء . إلى نصر أو غلبة ، أو فيصل بين الحق والباطل فى هذه الأرض .. ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئًا من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله .. لا جزاء على الآلام والتضحيات .. لا ، فالأرض ليست دار جزاء .. وإنما تحقيقًا لقدر الله فى أمر دعوته ومنهجه على أيدى ناس من عباده يختارهم ليمضى بهم من الأمر ما يشاء . وحسبهم هذا الاختيار الكريم ،

الذى تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة ، وكل ما يقع فى رحلة الأرض من سراء أو ضراء .

* * *

هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود فى قوله تعالى :

« وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » ..

حقيقة ينبغى أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل .

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هى فى صميمها معركة عقيدة وليست شيئًا آخر على الإطلاق . وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان ، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة ..

إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ، ولا معركة عنصرية .. ولو كانت شيئًا من هذا لسهل وقفها ، وسهل حل إشكالها . ولكنها فى صميمها معركة عقيدة ـ إما كفر وإما إيمان .. إما جاهلية وإما إسلام !

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المال والحكم والمتاع فى مقابل شىء واحد ، أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن فى هذا الأمر ! ولو أجابهم ـ حاشاه ـ إلى شىء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق !

إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة .. وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون

حيثما واجهوا عدوًا لهم . فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة « إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع !

وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة ، راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية ، كي يموِّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة ، ويطفئوا فى أرواحهم شعلة العقيدة . فمن واجب المؤمنين ألا يخُدَعوا ، ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت . وأن الذى يغيِّر راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقى فيها ، النصر فى أية صورة من الصور ، سواء جاء فى صورة الإنطلاق الروحى كما وقع للمؤمنين فى حادث الأخدود ، أو فى صورة الهيمنة ـ الناشئة من الانطلاق الروحى ـ كما حدث للجيل الأول من المسلمين .

ونحن نشهد نموذجًا من تمويه الراية فى محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة ، وأن تزور التاريخ ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستارًا للاستعمار .. كلا .. إنما كان الاستعمار الذى جاء متأخرًا هو الستار للروح الصليبية التى لم تعد قادرة على السفور كما كانت فى القرون الوسطى ! والتى تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر ، وفيهم صلاح الدين الكردى ، وتوران شاه المملوكى ، العناصر التى نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة !

« وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

وصدق الله العظيم ، وكذب المموهون الخادعون !

الفهرس